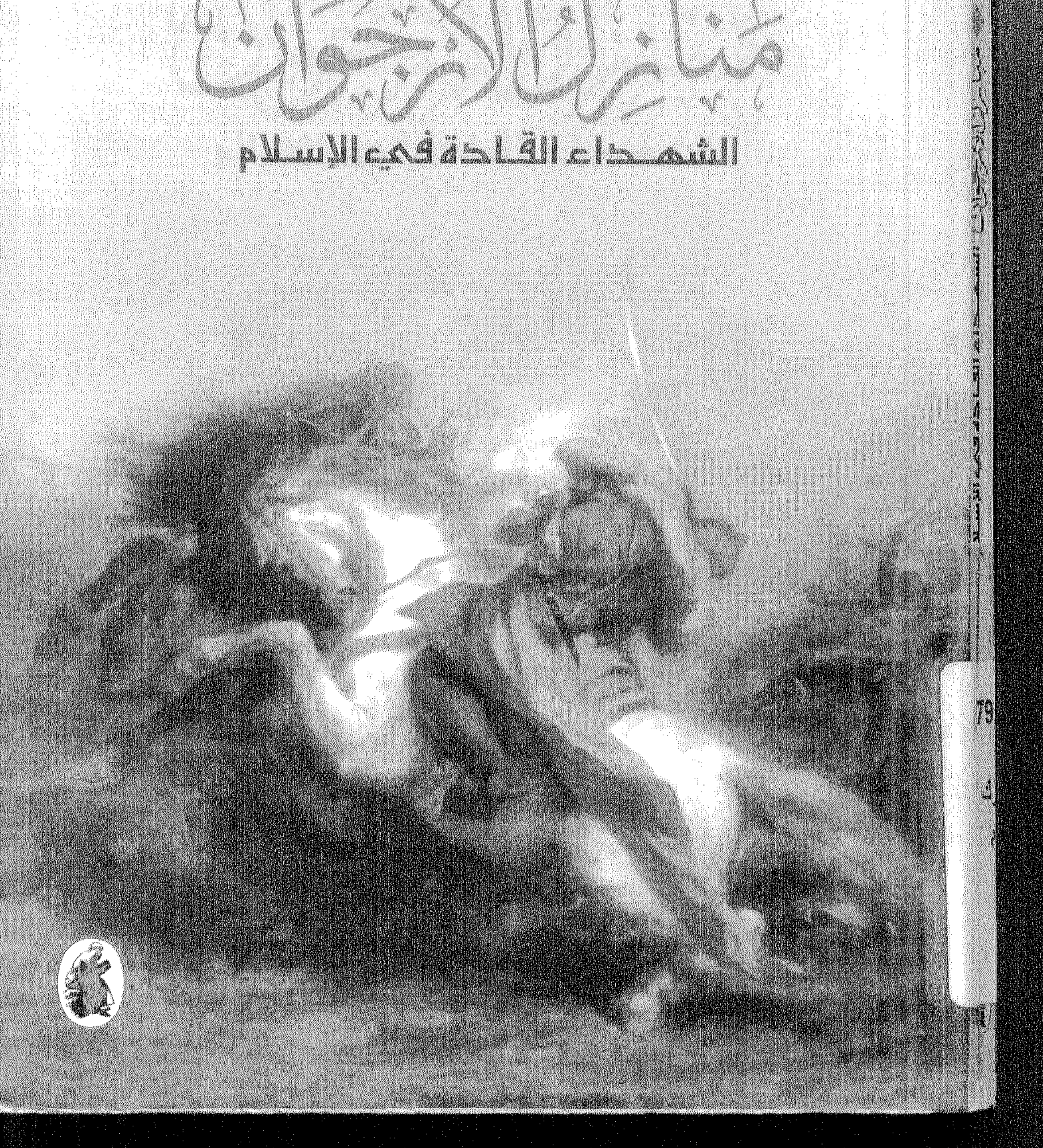
دراسات تاريخ

KHALED AL-KARAK

د. خالد الكركي

منازل الأرجوان

الشهداء القادة في الإسلام



مَنازِل الأُرجُوان

الشهـداء القـادة في الإسـلام

منازل الأرجوان : الشهداء القادة في الإسلام / دراسات ـ تاريخ
د. خالد الكركي / مؤلّف من الأردن
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : *Collision of Arab Horsemen*
ديلاكروا / فرنسا
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

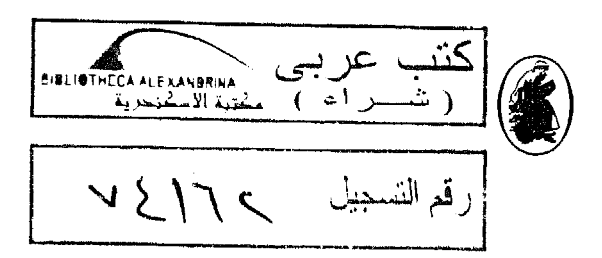
دراسات تاريخية

د. خالد الكركي

منازل الأرجوان

الشهداء القادة في الإسلام





بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ
بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

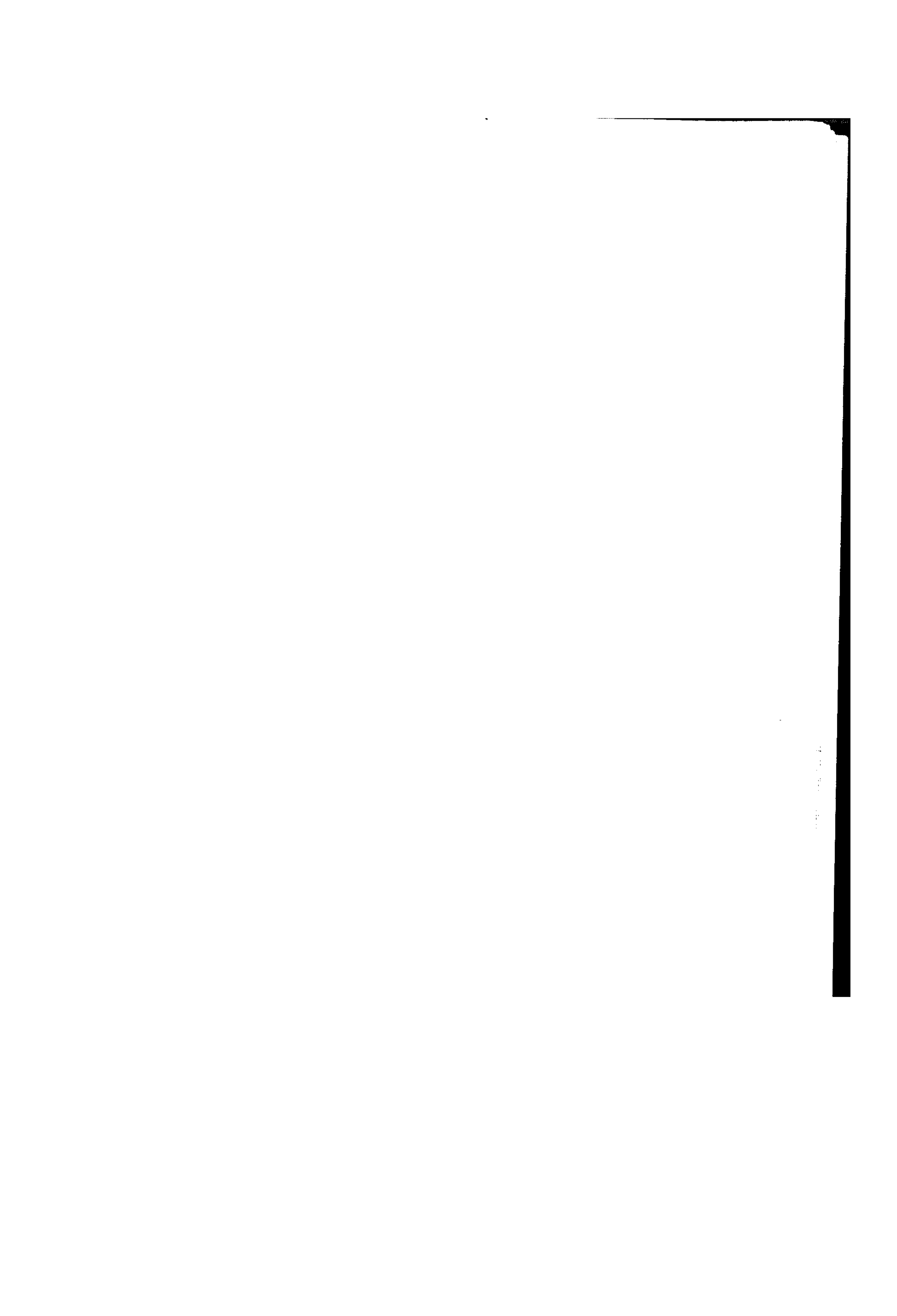
صدق الله العظيم

(الزمـــر)

الْمُحْتَوَيَات



أماقبل



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

صدق الله العظيم

(الأنفال)

أبدأ بالسلام على الشهداء ، على دمهم الأرجوان ، وراياتهم العالية ، واللواء الذي ظلّ خفّاقاً من زمن بدر وأحد إلى أن وطئت خيل الله بسنابكها ثرى الدنيا كلّها ، وأضاءت بالرسالة عتم العالم القديم الظالم ، وأعلنت انتصار التوحيد والحق والعدل ، وما تزال سواعد فتية آمنوا بربّهم تحضن اللواء الذي جلّلته الجراح الجعفرية التي عطّرت مؤتة ذات زمان عظيم .

وأبدأ قبل الدخول في موضوع هذه الدراسة بملاحظات ثلاث :

الأولى : أن مجال الدراسة واسع ، وأن أفواج شهداء الأمة لا يتناهون في الحصر . . وأنّ مسرى دمهم قد صار «نهر الشهادة العظيم» من أول الفتح في بدر إلى آخر الفتية الذين غفوا على ثرى فلسطين في انتفاضة الأقصى المباركة . لذلك وجهت جهدي إلى الصف الأول من الشهداء ، الذين وصفهم الحديث النبوي الشريف بأنهم الذين «لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا» ، والذين عرفهم تراثنا الأدبي بأنهم أهل «الخلق الوعر» .

الثانية : أنني لا أبحث عن القادة الشهداء بالمفهوم «الرسمي» للقتال العسكري وحسب ، بل أضيف إليهم قادة ثورات التحرر الشعبي ، والعمل الفدائي ، والفتية الذين وجدوا أنفسهم في فئة قليلة ، لكنهم شكلوا من

أرواحهم قادة ومقاتلين وقضوا على دروب النصر أو الشهادة .

الثالثة : إن اختيار شهداء بعينهم على امتداد تاريخنا متصل بمصادر الدراسة المتاحة ، فالغاية تقديم نماذج للمقاتلين في سبيل الله مقبلين غير مدبرين ، وهم الذين انطبقت عليهم أحكام الشهيد في الإسلام ، باعتبار «مصطلح الشهادة» خاصاً بأمتنا في دلالاته الإسلامية ، دون أن ننفي وجود المصطلح لدى أمم أخرى بدلالات خاصة بها ، أو ننقص من قيمة مصطلحات «البطولة» و «التضحية» و»الفداء» .

وقد أسعفني في المصطلح والمفهوم كتاب الشيخ حسن خالد «الشهيد في الإسلام» ، والرسالة التي تقدم بها الشهيد جمال سليم إبراهيم سليم إلى قسم الفقه والتشريع بجامعة النجاح الوطنية سنة ١٩٩٦ بعنوان : «أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية» ، ويوم كنت أراجعها وأنا أكتب الصفحات الأولى من هذه الدراسة في صورة محاضرة قدمتها بدعوة من مهرجان مؤتة الذي أقامته النقابات المهنية في عمان في الثاني عشر من آب سنة ٢٠٠١ ، كان يلقى وجه ربه على ثرى فلسطين ، قائداً وشهيداً ، وهو الذي قال في مقدمته : «فما دام في هذه الأمة قرآن يتلى ، وسنة تحفظ ، فإن

راية الجهاد لن تنكس ، ودم الشهيد الزكي لن يجف أو يبرد»[1] .

الرابعة : إنني لعلى يقين بأن من مسؤوليات المثقف العربي والمسلم المعاصر أن يضيء الجوانب المشرقة من ثقافة المقاومة على مدى تاريخ الأمة كلّها ، وإذا كان المثقفون يضجون بالشكوى من ثقافة السلطة ، وثقافة الآخر المتغلب ، وثقافة تتجه نحو العامية والخرافة ، فإن عليهم إخراج الناس من حيرتهم إلى دروب النور والمقاومة ، فما زال على الأمة عبء تجاوز أزماتها مع الاستبداد والاستعمار معاً ، ولا أظن أن الرومانسية السلبية ، والانكفاء والاغتراب ، والضجر ، والتبعية للآخر ، وصمت الخوف ، يمكن أن تنفع الأمة في مخاضها الدامي الضعيف .

إن روح الشهادة هي الطريق إلى ثقافة المقاومة ، حتى لا تظل المعرفة الإسلامية أسيرة في حالة من الجمود ؛ فالإسلام صحوة بالإيمان والعقل ، والشهادة صحوة الروح على قدسية الجهاد في سبيل الله ، لذلك نقرأ دفاتر الشهداء كي نضيء الحاضر

---

(١) انظر : جمال سليم الداموني ، **الشهادة والشهداء (أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية)** ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ٢٠٠٠ ، ص و .

ونستشرف المستقبل ، ولا نستعيد رؤاهم ومصارعهم على صورة الرحيل في الماضي ، بل ندعو ، ونحن نسعى نحو أضرحتهم إلى نهضة الأمة على قواعد العلم والتسامح والشورى والجهاد ، فما يزال في هذا العالم فقر وقهر واستعمار واستلاب ، وأمتنا في موضع المحنة والاتهام والتشظي ، لذلك تعزز صورة المرحلة ضرورة القراءة الجديدة لصور الجهاد العظيم من أوّل صبر آل ياسر إلى صبر أهل فلسطين .

إضاءات

بسم الله الرحمن الرحيم

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ

صدق الله العظيم

(الفتح ٢٩)

تحاول هذه الدراسة قراءة «روح» الشهادة ولحظاتها الخالدات من خلال الساعات الفاصلة التي اتخذ فيها الشهداء قراراتهم الخالدة بالمواجهة مع اثنين هما : العدو ورهبة الموت ، حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة ، ومن أجل المستضعفين الذين يستبد بهم الطغاة ، ومن أجل الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق . ولا بد من إبعاد الهاجس الثاني (الموت) عن الروح حتى تحقق اندفاعها الأخير نحو إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . وهذه المحاولة تقرأ مواقف خالدة ولحظات نادرة ، وتحاول أن تعزز المفهوم الإسلامي الخالد للشهادة في مواجهة دعوات الآخر الذي لم يتردد في وصف شهدائنا بأنهم رجال مندفعون أو متحمسون بفعل التحريض ، أو أنهم «انتحاريون» ، أو أنهم يختارون الموت على الحياة بسبب الفقر وسوء الأحوال الاقتصادية لبلدانهم . لكن مبعث الأسى ليس ما يقوله الآخر في روما الجديدة ، فقد سبق لأهل روما القديمة أن عجزوا عن استيعابه في اليرموك وعلى أسوار القسطنطينية ، لكنه في فئة من قومنا لها بين أهل الرأي مواقع ، بدأت تعيد كلام الآخر ولو على استحياء . .

أعاود الوقوف في حضرة جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبدالله بن رواحه ، وقبلهم سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ، وألتمس الرضا بين يدي عبدالرحمن الغافقي ، ومحمد بن حميد الطائي ، ونورالدين زنكي ، وعزالدين عيسى ابن مالك ، وسليمان الحلبي ، وعبدالقادر الجزائري والإمام

شامل، ويوسف العظمة، وعبدالكريم الخطابي، وعزالدين القسام، وسعيد العاص، ومحمد الحنيطي، وعبدالقادر الحسيني، وعبدالمنعم رياض، وآلاف آخرين من الشهداء والقادة.. أعني الذين شكلت قيادتهم التاريخية (حتى لو كانوا في عدد محدود من المؤمنين) نموذجاً خالداً لما سماه أبو تمام في رثاء القائد الشهيد محمد بن حميد الطائي «الخلق الوعر» في قصيدته التي جاء فيها:

وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ
إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعْرُ
ونفسٌ تعافُ العارَ حتّى كأنّهُ
هو الكُفْرُ يومَ الرّوعِ أو دونَهُ الكُفْرُ

لكن السؤال الصعب يظل قائماً، وهو حول تلك اللحظة الخالدة التي يقدم فيها القائد / المقاتل شروط مواجهته للعدو، وأولها تقديمه الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته على أي شروط ورغبات تحملها النفس البشرية، والنفس عزيزة على صاحبها، كما هي الحياة والأهل والأبناء، والذي يراه هو قريباً نسميه المستقبل (في الزمان الذي نعيش فيه) ويرى في مقابل ذلك كله مستقبلا آخر نراه بعيدا، ونحن نرى أنفسنا في مواجهة الموت العادي اليومي ونحس ببرودة القبر، ووحشة الظلام، بينما هو يرى الموت عبوراً إلى رحلته القادمة ببهجتها، وبوجوهها التي

منحها الله سبحانه وتعالى لمن يقاتل في سبيله : إنه حي يرزق في الجنة ، وأنه مسرور بما آتاه الله من فضله على جهاده ، وأنه مستبشر بالذين لم يلحقوا به ، ومسرور بلحوق من لحق من إخوانه على ما مضوا عليه من جهادهم ليشركهم فيما هو فيه من ثواب الله ، وقد أذهب الله عنهم الخوف والحزن . وهذه صورتهم في كتاب الله العزيز :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

(آل عمران)

هذا هو السر العظيم الذي يأخذ بيد الشهيد إلى حياته الجديدة ، إنه التجرد من كل مجد شخصي أو عائلي أو مادي ، وإنه القدرة على «التجاوز في سبيل إعلاء كلمة الله» ، وهي قدرة تكون حين يستحكم الإيمان ، ويصير الدفاع عن الحق غاية ، والقتال في سبيل الله هدفاً ، وتكتمل به صورة شخصية المسلم القرآني (الشهيد المقبل) جندياً كان أو قائداً أو مواطناً بسيطاً ، . .

إنه تجاوز الخوف البشري من الموت مقابل وعد إلهي بالجنة ، وتجاوز التردد مقابل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، وتجاوز الروابط الدنيوية مقابل حياة أكرم ، وحياة عند الله أبهج وأعظم .

لقد عرف المسلمون في بدايات الدعوة نضالا سرياً عظيماً ، وجهروا بالدعوة ، وعرفوا صبراً إنسانيا ما يزال خالداً أمام البشر كلهم مهما تباعدت الأزمان ، وعرفوا هجرات بعيدة وقريبة ما زادتهم إلا ثقة وصلابة في الدفاع عن دينهم ، وعرفوا حصاراً ما زادهم إلا أخوة وتماسكاً . . ثم أذن الله سبحانه وتعالى لهم بالقتال ، وتوالت الآيات الكريمة بذلك فتغير وجه التاريخ الإنساني كله . .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ (الحج)

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ (التوبة)

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

(البقرة)

وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

(البقرة)

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

(البقرة)

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(التوبة)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

(محمد)

فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

(النساء)

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

(البقرة)

ويصبح أمر القتال واضحاً ، إنه قتال في سبيل الله ، وهو ضد المشركين وأولياء الشيطان ، وأئمة الكفر ، والذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وإنه قتال حتى لا تكون فتن ، وحتى يكون الدين لله :-

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(الأنفال)

في ظل هذه الرؤية للقتال يتحول الموت إلى موعد مع الحياة ، وما دام الأمر على هذا النحو فقد اختلف عن قتال الحمية الذي سبق الرسالة . . وقد ملأ القرآن أرواح المؤمنين طاعة ورضا وحزما وبشراً . . إنهم أهل رسالة وعلى المؤمنين أن يعيدوا إلى المستضعفين حريتهم وكرامتهم ، ولو قاتلوا عند آخر حدود الدنيا ، وقد فعلها عقبة بن نافع يوم وقف جواده عند بحر الظلمات . . ألم يترك فينا رسول الله ﷺ رسالته الخالدة :

«لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا» .[1]

وقال رسول الله ﷺ : ***«والذي نفسي بيده ، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلّفت عن سرية تغزو في سبيل الله . والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ،ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل»***[2] .

وقال رسول الله ﷺ : ***«لقاب قوسين في الجنة خيرٌ مما تطلع عليه الشمس وتغرب . وقال : لغدوة أو روحةٌ في سبيل الله***

---

(١) البخاري ، ابوعبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ، **صحيح البخاري** ، راجعه وصححه ؛ جمال عبيدة ، ج٢ ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٩٩١ ، كتاب الجهاد والسير

(٢) **صحيح البخاري** ، ج٢ ، كتاب الجهاد والسير .

خير مّما تطلع عليه الشمس أو تغرب»[1] .

معروف لنا جميعاً أن الأمر بجانبه الإيماني واضح ، وأن أحكام الشهيد بينة ، وأن النماذج الإسلامية العليا في السلوك الإنساني والحرب والسلم مستقرة في الشريعة ، وأن التاريخ هو كتاب هذه الرحلة العظيمة من مكة المكرمة إلى ما بعد الصين ، وإلى حيث نادى مؤذن في آخر مكان من هذا العالم أن الله أكبر الله أكبر . . لكن النظر في اللحظات الخالدة للشهداء يدفع بالباحث إلى فكرة رئيسية واحدة ، وهي تقديمه النموذج الإيماني والنفسي من خلال أمثلة للشهادة في سبيل الله إلى هذا الزمان الذي يعتري فيه التردد والشك أرواح كثيرين من الجاحدين . .

إنّ الشهادة فعلٌ فيه قدْرٌ من الاختيار حتى ينتصر الحق ، وبعد النصر والشهادة جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . . إنها صورة آل ياسر ، وإنها صورة لعُمير بن الحُمام أخي بني سلمة كما رواها ابن هشام في سيرة النبي ﷺ ، في أخبار غزوة بدر الكبرى قال :

«ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم وقال : والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . . فقال عُمير

---

(١) المصدر نفسه .

بن الحُمـام . . . وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفـما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل»[1] وهو أول شهداء بدر ، وأوّل قتيل من الأنصار في الإسلام .

وقد أضاف عوف بن الحارث إلى هذه الروح سؤالا عظيماً آخر ، قال في المعركة نفسها :

«يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده؟ قال غمسه يده في العدو حاسراً . فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل» [2] .

وقوله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله-والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله- إلاّ جاء يوم القيامة ، واللّون لون الدّم ، والريح ريحُ المسك»[3] .

ألم يسمعوا قول النبي ﷺ :

«لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب ، في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم

---

(١) ابن هشام أبو محمد عبدالملك بن هشام ، السيرة النبوية ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ ، ١٧٥/٣ .

(٢) السيرة النبوية ، ١٧٥/٣-١٧٦ .

(٣) صحيح البخاري ، ج٢ ، كتاب الجهاد والسير .

ومأكلهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله تعالى : فأنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الآيات : ولا تحسبن» (١) .

وقوله ﷺ :

«ما من عبد يموت ، له عند الله خيرٌ ، يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا ، وأنّ له الدّنيا وما فيها ، إلاّ الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فإنّه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا ، فيُقتل مرة أخرى» (٢) .

وقوله ﷺ :

«وأفضل الشهداء : رجل خرج مسوداً بنفسه ورحله يحب أن يقتل ويقتل ، وقاتل حتى قتل قعصاً ، فذلك يبعثه الله يوم القيامة شاهراً سيفه ، يتمنى على الله لا يسأله شيئاً إلا أعطاه إياه» (٣) .

وقوله ﷺ :

«ألا أخبركم بأفضل الشهداء عند الله منزلة يوم القيامة؟ الذين يلقون العدو في الصف ، فإذا واجهوا عدوهم لم يلتفت

---

(١) السيرة النبوية ، ٧٤/٤ .

(٢) صحيح البخاري ، ج٢ ، باب الجهاد والسير .

(٣) السيرة النبوية ، ٤/ ٧٦ .

يميناً ولا شمالاً ، واضعاً سيفه على عاتقه ، يقول : اللهم إنّي أجْزيك نفسي اليوم بما أسلفت في الأيام الخالية . فيقتل عند ذلك ، فذلك من الشهداء الذين يتلبطون في الغرف العليا من الجنة حيث شاؤوا» [١] .

وقوله ﷺ :

«أفضل الشهداء عند الله الذين يلقون في الصف فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ، يضحك إليهم ربك . إن ربك إذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم» [٢] .

---

(١) ابن المبارك ، عبدالله بن المبارك بن واضح ، كتاب الجهاد ، تحقيق نزيه حمّاد ، دار المطبوعات الحديثة ، جدّة ، ص ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

صور من زمان عظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

صدق الله العظيم

(الأنفال).

إشراقات أولى

إنها صورة من الأيام الأولى للجهر بالدعوة ؛ المؤمنون صامدون ، أعني الأوائل من الذين انضووا تحت راية الإسلام ، وصبروا على أذى المشركين وعذابهم . . أعني ياسراً وسمية وعمّاراً ، وقد غدت سمية أوّل شهيدة في الإسلام ، واستشهد ياسر بعد أن عرف من العذاب أقساه على أيدي قريش الكافرة ، وظل عمّار صامداً ، ومهاجراً ، ومقاتلاً مع رسول الله ﷺ حتى نادى المنادي يوم صِفّين بأن عمّاراً قد سقط شهيداً ، واستعاد الناس في جيش علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قول النبي ﷺ لعمّار :

«ويْحَ عمار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[1] .

إنه الصبر العظيم لأسرة مسلمة كرمها رسول الله ﷺ يوم كان يمر بهم وهم يُعَذَّبُونَ برمضاء مكة فيقول : ***«صبراً آل ياسر ،***

---

(١) ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد ، **الإصابة في تمييز الصحابة** ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٢٨هـ ، ٢/٥١٢-٥١٣ .
وانظر في آل ياسر ، علي سامي النشار ، **شهداء الإسلام في عهد النبوة** ، مكتبة أسامة بن زيد ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٧-١٧ .

موعدكم الجنة»[1] .

وتبدأ روح «بدر» بعد نصرها العظيم ، وتسجّل دفاتر الشهادة العطرة أسماء عمير بن الحمام ، وعوف بن الحارث ، وتخبرنا أن اثنين من فتيان الإسلام وهما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن الحارث بن عفراء ظلاّ يسألان في غمرة المعركة عن أبي جهل ، وقد قالا لعبد الرحمن بن عوف إنهّما يريدان قتله لأنه بلغهما أنه يسبّ رسول الله ﷺ ، ثم ابتدراه بسيفيهما حتى أثبتاه ، وأجهز عليه عبدالله بن مسعود[2] .

حمزة : سيد الشهداء

هذا أعز فتيان قريش قد أقبل متوشحاً سيفه ، لكن مولاة عبدالله بن جدعان تستوقفه لتقص عليه ما لقي ابن أخيه محمد ﷺ من أذى من أبي الحكم بن هشام ، فلا يهدأ غضبه إلا وقد ضرب أبا جهل وشج رأسه ، ثم أعلن إسلامه . .

هذا هو المحارب الفذ في الدولة الجديدة ، وفي روايات أن حمزة هو قائد أول بعث إسلامي حربي . . أي أول قائد إسلامي (بعد النبي ﷺ) وقد عقد له الرسول أول راية في الإسلام على

---

(١) السيرة النبوية ١٦٢/٢ .

(٢) انظر محمد حاتم الطبشي ، **بطولات ومواقف في الصبر والتحمل والتضحية** ، ط١ ، دار العلم(دمشق) والدار الشامية (بيروت) ١٩٩٥ ، ص ٧٩-٨٥ . وانظر مقتل أبي جهل في **صحيح البخاري** ، ج٢ ، كتاب المغازي .

بعث من ثلاثين راكباً ليلقوا بعثا تجاريا لقريش كان عائداً من الشام . . ولعل بعث عبيدة بن الحارث كان متزامناً مع بعث حمزة حتى شُبِّهَ ذلك على الناس[1] .

ذاك هو حمزة أحد أبطال بدر يبارز قادة الشرك ويوغل فيهم قتلاً ، وقد علّم نفسه بريشة نعامة ثبتها في صدره . . وذاك هو في أُحُد سيف من سيوف الله لا يلقى مشركا إلا صرعه . . إلى أن جاءته الحربة الغادرة فصار سيد الشهداء وأول بوابات الشهادة العظيمة التي عبرها المقاتلون بعده ، فهو الذي علّم اللغة معنى الوقوف في «جفن الرّدى» ، والرّدى نائم ، وعلّمها اليقظة من سبات كهفها الجاهلي الذي قاتلت فيه حميّة ، وما يزال حاضراً يوقظ في زماننا هذا روح الشهادة حتى لو غفا أهل الأمة في كهوف من الخوف خيّل لبعضهم أنها تجعلهم آمنين . إنه حمزة بن عبدالمطلب الذي لم يترك مجالاً لسؤال / لماذا سعى إلى الشهادة؟ ، فلا أحد يسأل الشمس لماذا تشرق ، والغيوم كيف تمطر ، والسيوف متى تشهر . . لأن ذلك واقع في إرادة الله العلي القدير .

إنه أسد الله وأسد رسوله ، الشهيد من أجل عزة الإسلام ، إنها روح الهيبة والعزة نفسها التي صبر بها سعد بن معاذ على

---

(١) السيرة النبوية ، ١٤٠/٣ .

جـراحـه في الخندق حـتى انفـجـرت نزفـاً فلحق بالـشـهـداء والصديقين ، والتي جعلت القائد الأندلسي الكبير المنصور بن أبي عامر ، قائد الغزوات الخمسين ، يقيم علمه على رابية عَسْكَرَ عندها ، ثم غادر المكان ونسي العلم مكانه ، فلبث الأعداءُ شهورا لا يجرؤون على الاقتراب من العلم مخافة المنصور ، بل إنّ ابنه خالفه وهرب إلى الأعداء ، فعاقبه بالموت . . وظل يجمع غبار المعارك الذي علق بثيابه في الحرب ويحتفظ به أنّى سار(١) .

وفـي أحـد قـاتل مصعب بن عـمير دون رسـول الله ﷺ حتى قـتل ، فأعطى رسـول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ومصعب نموذج فذ لفتوة الإسلام ولأهله ، فهو المهـاجـر ، والداعـيـة ، والزاهد ، والفـارس ، . . لقـد حـمل لواء الإسلام في أحد ، ولقي وجه ربه شهيداً ، وتقول إحدى الروايات إن مشركاً ضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقرأ قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وأخـذ اللواء بيـده اليـسرى وحنا عليـه ، فـضـرب المشـرك يده اليـسرى

(١) انظر أخبـاره مفصلة في ابن عـذاري المراكشي ، **البيـان المغرب في أخبـار الأندلس والمغرب** ، تحقيق ج .س كولان و إ . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ٢٥٦/٢-٣٠١ . وأبو العبّاس أحمد بن المقرّي التلمساني ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب** ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٤٠٩/١ .

فقطعها ، فحنا على اللواء وضمّه بعضديه على صدره ، وهو يعيد الآية الكريمة نفسها ، ثم طعنه بالرمح ، فوقع مصعب ، وسقط اللواء فابتدره مقاتلان من الجيش الإسلامي فأعاداه عالياً وسط ضجيج القتال والدماء [1] .

هذه سيرة معروفة لفتى كبير في دوره وحضوره ، وسنراه ثانية في حلم الدم والفتح يوم يتقدم جعفر بن أبي طالب صفوف الجيش في مؤتة ، ويسقي المعركة بدمه حتى لا يسقط اللواء . وسيكون من شهداء أحد عبدالله بن جحش ، وعمرو بن الجموح ، والحارث بن أنس بن رافع ، وسعد بن الربيع ، وحنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) ، ومالك بن سنان ، وعبدالله بن جبير بن النعمان (وهو أمير الرماة) ، وأنس بن النضر ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، وأوس بن ثابت . . وآخرون رفدوا بدمهم نهر الإسلام العظيم ، وستكون معهم حين حمي الوطيس سيدة مقاتلة من سيدات الإسلام الخالدات ، إنها نسيبة بنت كعب المازنية [2] .

وتظهر صورة الذراعين المقطوعتين مرة ثالثة في أخبار سالم

---

(١) انظر علي سامي النشار ، **شهداء الإسلام في عهد النبوة** ، ص ٤٤-٥٣ .

(٢) **الإصابة** ٤/٤١٨-٤١٩ . وانظر محمد حاتم الطبشي ، **بطولات ومواقف** ، ص٩٢-١٢٠ .

مولى أبي حذيفة : فقد ورد في الإصابة :

«روى ابن المبارك أن لواء المهاجرين كان مع سالم فقيل له في ذلك ، فقال : بئس حامل القرآن أنا ، يعني إن فررت ، فقطعت يمينه ، فأخذه بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صُرع . .» [١] .

وفي أخبار نسيبة بنت كعب المازنية ، وهي التي شهدت أحداً وقاتلت دفاعاً عن النبي ﷺ ، أن يدها قطعت في معركة اليمامة وأنها جرحت اثني عشر جرحاً ، ذلك أنها لمّا بلغها قتل مسيلمة لابنها حبيب عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة أو تقتل ، فشهدت اليمامة مع خالد بن الوليد ومعها ابنها عبدالله فقُتل مسيلمة ، وقطعت يدها في الحرب [٢] .

وتظل مشاهد أحد ودروبها حاضرة في عروق الزمان الإسلامي ، وذاك هو عبدالله بن جحش وقدْ سُمع يوم أحد يقول : اللهمّ إنّا ملاقو هؤلاء غداً ، وإنّي أقسم عليك لّما يقتلوني ، ويبقروا بطني ويجدعوني . فإذا قلت لي : لم فُعِل بك هذا؟

---

(١) الإصابة ٧/٢ ، وانظر ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، ص ١٢٣ .

(٢) الإصابة ٤١٨/٤ .

فأقول : اللهمّ فيك . فلما التقوا فُعِل به ذلك [1] .

شهداء مؤتـــة : الجعفريون

إن بحثاً دقيقاً يقرأ نموذجاً للشخصية الإسلامية الكاملة في دينها وقتالها وشهادتها يبقى مرسوما في إطار فهم البناء الإسلامي لنفسية المسلم ، ودوره وثقافته وموقفه ورؤيته ، ولعلنا غير قادرين في حالات كثيرة على إعادة رسم الملامح الذاتية للشخصيات التاريخية حين لا تتوافر سيرة ذاتية أو غيرية عن زمانهم وتفاصيل حياتهم ، وحين تكون الأخبار التاريخية عنهم نادرة بما لا يسمح بفهم التحولات الإنسانية داخل الشخصية نفسها ، ولعل محاولة عباس محمود العقاد في العبقريات الإسلامية تظل شاهدا على عمل كبير في بابه ،لكننا إن وجدنا أخبار الشخصيات العظيمة (خلفاء وأبطالاً وقادة فاتحين) متوافرة في مصادر التاريخ وكتب أخبار الرجال وسير الأعلام والوفيات ، فإن أخبار الشهداء قليلة لأنه في اللحظة التي تزهر فيها روحه بالشهادة تبدأ شهرته العظيمة ، بينما يحقق قائد آخر شهرة وبطولة ويظل يروي ، هو أو غيره ، سيرة أحداث حياته ، أو أساه

---

(١) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن علي القرشي ، **صفوة الصفوة** ، تحقيق محمود فاخوري ومحمد روّاس قلعه جي ، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

على نهايتها ، بالموت العادي كما عبر عن ذلك خالد بن الوليد .

إن شخصية جعفر بن أبي طالب تبعث على الاهتمام العميق بها باعتباره نموذجاً للقائد الشهيد ، ولعل توافر معلومات محدودة عنه يسعفنا في فهم الصورة التي ارتبط اسمه بها في تاريخنا ، الاسم الذي اسند رايتنا في الصدام الأول مع الروم إلى عضديه بعد أن قطعت يداه . . كأنه كان يستشرف حديث النبي ﷺ : « أفضل الشهداء من سُفك دمه وعقر جواده»[1] .

تلك هي أول ملامح الفتى العائد مع مهاجري الحبشة يوم فتح خيبر ، والرسول ﷺ يقبله بين عينيه ويقول :
«ما أدري بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[2] . . .!!

يا له من فتى هذا الذي يعدل حضوره فتح خيبر . . إنه الفتى نفسه الذي سيمنح التاريخ بعد ذلك أعظم مواقف الشهادة وأبعدها أثراً . . وبعد خمسة عشر قرنا من ذلك الزمان الحبيب البعيد ، يطل جعفر بعضديه تحضنان راية الإسلام . . إنه القائد

---

(١) محمد عبدالرحيم ، أربعون حديثاً في الشهادة ، ط١ ، دار الحكمة ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص٢٥ .

(٢) السيرة النبوية ، ٥/٥ .

الثاني لجيش الإسلام في مؤتة بعد زيد بن حارثة ، والثالث رفيقهما الشاعر الصحابي عبدالله بن رواحة . .

أولئك هم ينطلقون ، ثلاثة آلاف مقاتل يبحثون عن إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة ، وذلك هو ابن رواحة يشجع الجند خطابة وشعراً ، وينشد :

فلا وأبِي مآب لنأتِيَنْها
وإن كانتَ بها عربٌ ورومُ(١)

ما تزال «مشارف» قائمة قرب مؤتة ، وما تزال تذكّر بالسيوف التي كانت تصنع فيها ، وهناك لقي المسلمون جموع هرقل ، وعلى ميمنة الجيش الإسلامي قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم عباية بن مالك (وقيل عبادة) وفي احتدام الصدام الأول قاتل القائد الأول زيد بن حارثة بلواء رسول الله ﷺ حتى شاط (توزع) في رماح القوم . . أيّ مثال عظيم هذا! لكنه الوفاء للنبي القائد الذي نعى الشهداء الثلاثة إلى الناس وعيناه تذرفان ، ، وعندما أشفق الصحابة عليه من الحزن على زيد قال «هذا شوق الحبيب إلى الحبيب»(٢) .

---

(١) المصدر نفسه ، ٥/٢٥ .

(٢) انظر صحيح البخاري ، ج ٣ ، كتاب المغازي ؛ محمد فهمي عبدالوهاب ، شهداء الصحابة في صدر الإسلام دار الاعتصام ، القاهرة ، ص ١١٢ .

ثم كان على القائد الثاني أن لا يطيل النظر إلى رفيقه ، بل أن يأخذ اللواء ويقاتل ، حتى إذا اشتد القتال وألحمه «اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام» . .

إن الأمر بيّن له . . لذلك ضرب قوائم فرسه بسيفه ، مخافة أن يأخذها العدو . . إنها رمز أيضاً ، فهي فرس القائد المسلم . . وقد ظلّ اللواء عالياً والسيف مشرعاً ، وما عليه سوى أن يعزز غضب الوجدان وإسلامية الروح كي يكمل صياغة تلك اللحظة الخالدة . . لذلك أنشد :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها
طيبةً وبارداً شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها
كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها
عليّ إذ لاقيتُها ضِرَابُها[1]

يتزاحم الأعداء حوله ، والغاية أن يسقط البطل واللواء ، كان

(١) السيرة النبوية ، ٥/٢٨ . وانظر الأصفهاني ، أبوالفرج علي بن الحسين بن محمد ، مقاتل الطالبيين ، ط٢ ، المكتبة الحيدرية ، النجف الأشرف ، ١٩٦٥ ، ص٦-١٠ .

اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله . . إنها بسالة فوق قدرتنا على التصور . . ذاك هو دمه الطاهر يسقي تراب مؤتة ، وسوف تمتد بقعة الدم الطاهر من مؤتة إلى اليرموك والقادسية وكربلاء ثم إلى الأندلس والصين في مئة من السنين . لم يتلفت جعفر إلى مسرى الدم من يمينه ، بل إلى اللواء الخفّاق ، لكن يده اليسرى تتفجر نبعاً من الدم ، فلا يلتفت إليها . . إنه واقف «وما في الموت شك» لمن هو في مثل موقفه ، لكن اللواء أغلى ، فليضمه بعضديه . . إنه مشهد تعجز اللغة والصورة عن استعادته ، عضدان نازفان ، ولواء عال ، وفتى محاصر ، وفرس ضربت قوائمه . . . سيلقى جعفر وجه ربه شهيداً بعد قليل ، لكن الوقت بين النزف والرحيل كان كافياً كي يصل إليه القائد الثالث عبدالله بن رواحة فيأخذ اللواء ، وصوته يعلو بالنشيد الشجاع :

أقسَمْتُ يا نَفْسُ لَتنْزلَنَّهْ
لَتِنْزِلَنَّ أو لَتُكْرَهِنَّهْ[1]

ويصعد النشيد في فضاء المعركة ، والحَطْمَة تشتد ، فيتقدم ويقاتل حتى يلحق بصاحبيه مطمئناً إلى أن اللواء سيجد من يحميه . . وذاك هو في كف سيف الله خالد بن الوليد وهو يدافع القوم ويخاشي بهم حتى انصرف

(١) السيرة النبوية ، ٥/٢٩ .

بالناس ..

أربعة رجال في قيادة معركة الأمة في أرض الصدام الأول .. ثلاثة أعلنوا أمراء للجيش . الثلاثة شهداء ... إنها صورة متفردة في القادة ، وذاك هو المشهد الخالد ..

روي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :

«*دخلت الجنة البارحة ، فرأيت جعفراً يطير مع الملائكة ، وجناحاه مضرجان بالدم ..*»[1]

تلك هي ساعة جعفر النادرة في التاريخ الإنساني ، إنها خلاصة إيمان ورسالة وعزيمة وشجاعة وبطولة ، لكنها فوق ما عرف الناس من الشجاعة الخارقة والبطولة الفذة ، فما الذي دفع الفتى ابن الثالثة والثلاثين إلى مثل هذه الرؤية الخالدة لمعنى الرسالة ومعنى الحياة !! لقد اختصر شاعر من المسلمين كان في المعركة استشهاد القادة حين قال :

ثَلاَثَةُ رَهْطٍ قُدِّمُوا فَتَقَدَّمُوا
إلى وِرْدِ مَكْرُهٍ من المَوْتِ أحْمَرِ[2]

الأصل إذن أنهم قدموا للقيادة ، وتلك هي المسؤولية التي كان

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٨/٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ٤١/٥ .

عليهم واجب حملها أمانة في مختلف الظروف ، ووفاء لتلك الأمانة تقدموا صفوف قواتهم وهم يعرفون أن الموت في مواجهتهم ، لكن الشاعر رآه موتاً ورأوه طريقاً إلى الجنة ورضا الله ورسوله عنهم . . .

إنه «جعفر» . . لكنه أيضاً «الطيار» و «ذو الجناحين» و «ذو الهجرتين» ، وهو بين قومه «أبو المساكين» لرأفته عليهم وإحسانه إليهم . . ومن أجل هؤلاء المساكين والمستضعفين حمل رسالة الإسلام وقاتل حتى تكون كلمة الله هي العليا ، حتى وإن احتاج الأمر أن يكون به فوق قطع يديه نيف وسبعون ، وقيل نيف وثمانون ما بين طعنة وضربة ورمية[1] . وعن عبدالله عمر رضي الله عنهما قال « . . . ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية»[2] .

فهل لنا بعد ذلك أن نبحث عن تفسير الشجاعة في كتب الأساطير والتراجيديا !! هذه واقعة حقيقية ، وبطلها إنسان مؤمن تحمّل هذا كله حتى لا يسقط اللواء . . لواء النبي العظيم الذي دخل إلى بيت جعفر ، فنعاه ، ثم سأل « أين بنو أخي؟ وأجلسهم

(١) ابن عتبة الأصغر ، أحمد بن علي بن الحسين ، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب** ، وزارة الثقافة ، عمّان ، ١٩٩٦ ، ص ١٩ .

(٢) **صحيح البخاري** ، ج ٣ ، كتاب المغازي .

بين يديه وذرفت عـيناه» . . وهو ﷺ الذي قـال : «الناس من شجر شتى ، وأنا وجعفر من شجرة واحدة»(١) .

إنها أخوة تتجاوز ما بينهما من قربى الدم ، وسوف يمتد اسم جعفر وأسماء أبنائه وأحفاده في أرض الأمة ، ويكون منهم ابنه محمد الذي سيقتل مع عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في صفين ، وعون ومحمد الأصغر ويقتلان مع ابن عمهما الحسين في يوم الطف ، وعبدالله الأكبر أحد أجواد بني هاشم الأربعة وهم : الحسن والحسين وعبدالله بن العباس ، وهو الرابع(٢) . .

قد يوغل الباحثون نبشا في نتائج معركة مؤتة ، وقد يقف بعضهم عند لحظات الشهادة وطرح سؤاله حول هذه «الجرأة» العظيمة ، وكيف تقوم معركة تفتقد توازنها العسكري ، مهما كانت شجاعة القلة المؤمنة كما يظنون !! ثم لا يسألون أنفسهم عن الطاعة الواجبة على الجيش لقائده العظيم ، ﷺ .

إن التضحية التي قدمها جعفر تواصل صياغة النموذج البدري ،

---

(١) انظر جملة من الأحاديث والأخبار حول خُلق جعفر ومقتله في : الأصفهاني ، **مقاتل الطالبيين** ، ص ٦-١٠ .

(٢) **عمدة الطالب** ، ص ١٩-٢٠ . وانظر التفاصيل في كتاب **المغازي** للواقدي أبو عبدالله محمد بن عمر ، تحقيق مارسدن جونز ، انتشارات اسماعيليان ، طهران ٧٥٥/٢-٧٦٩ .

وتكرس صورة حمزة ورفاقه في أحد .. إن مصلحة أعلى تبدو للمقاتلين من شرفات الرؤية الإسلامية للجهاد وتوطين النفس على القتال .. ألم يقرأوا في صلاتهم قوله سبحانه وتعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

(التوبة ١١١)

إنها في أرواح زيد وجعفر وعبدالله راسخة .. وهم قريبو العهد بالوحي يتنزل على قائدهم بالقرآن العظيم :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

(البقرة)

لذلك زحف جيش من ثلاثة آلاف مقاتل ليواجه روما وحلفاءها العرب في أعداد بلغت في بعض الروايات مئة ألف مقاتل ، فهل من حرج إن حمل رجل على جمع من العدو طالبا الشهادة ليعزز لدى قومه رؤيتهم لمعالم الطريق الجعفري العظيم التي غابت ملامحها عن كثيرين منا حين عميت البصائر والأبصار ولو إلى حين .

إن مؤمنين كثيرين مستضعفين قد تحملوا النفي والحصار والسجون والشدائد معارضة للظلم والقهر . . وهذه تضحيات عظيمة أيضاً ، وهي على الطريق الإيماني نفسها ، وكم من جرحى وأسرى تحملوا وجع الجراح وظلم المتغلبين ، فصبروا ، لكن مؤتة التي سمى النبي عليه الصلاة السلام قادتها الثلاثة ، وبيّن تتابع حملهم للواء ، جعلتنا نطرح السؤال الكبير : للجيش قائد ومعاونون فلماذا القادة الثلاثة ! ونعيد الجواب نفسه : إنهم أول الدم على درب طويل سيحمل رسالتنا إلى الدنيا عدلاً وحرية عبر بوابات الشهادة والصبر والرضوان ، وحين يرحل القادة الثلاثة شهداء مكرمين ، يكون القائد الرابع خالد بن الوليد قد صار بطلاً وسيفاً من سيوف الله . . وهو الذي سيلقي السلام على أرواحهم يوم ينتصر جيش الإسلام العظيم في اليرموك .

إن مؤتة إيذان بتغيير العالم ، وبعدها بسنوات قليلة تكون اليرموك ، وتسقط كل نظريات ضعف روما والظروف التي جعلت هزيمتها ممكنة . . إنه ليس ضعف روما بل قوة الإسلام ، وإلا فما بال الذي حشد مئة ألف أو مئتي ألف لمواجهة ثلاثة آلاف مقاتل لا يحشد مثلها بعد سنوات قليلة لمواجهة أربعين ألف مقاتل ، وقيل إنهم ستة وثلاثون ألفاً فقط . إنه صراع الحق والباطل ، والشهادة هي الطريق إلى الحق والنصر .

إنها ساعة الاختبار تلك التي كانت ذات صباح في مؤتة ، وهو اختيار إلهي عظيم كان قبل ذلك في بدر وأحد :

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿آل عمران﴾

إنه الموت الذي سينقلب إلى حياة إن قتلوا في سبيل الله . . حياة عند العلي العزيز ، وفرح واستبشار بالقادمين بعدهم على هذه الطريق التي يسلكها المؤمنون من زمن الرسالة الأول القريب . .

أليس جعفر صورة من مصعب بن عمير حامل اللواء في أحد ، وهو الذي قاتل دون رسول الله حتى قتل! « وقد وقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وهو منعجف على وجهه يوم أحد شهيداً ، وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ ثم إن رسول الله ﷺ يشهد عليكم أنكم شهداء عند الله يوم القيامة . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس : ائتوهم وزوروهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ، لا يسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه السلام»[1] .

سيتذكر عبدالرحمن بن عوف مصعباً ذات زمان بعد أحد ، فقد أتي بطعام وكان صائماً فقال : «قتل مصعب بن عُمير ، وهو خيرٌ مني ، فكفن في بُرْدَة ، إن غُطّي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه . . وقال : قتل حمزة وهو خير منّي ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط . أو قال : ـ أعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ ، وقد خشيت أن تكون حسناتنا عُجلت لنا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[2] .

وسيتذكر سعد بن أبي وقاص صباحات بدر ، وجبّته التي كان يرتديها آنذاك ، ويقول لأهله : «كفنوني فيها ، فإني كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي علي ، وإنما كنت أخبئها لذلك»[3] إنهم هم «البدريون» و «الجعفريون» الذين رفعوا أشرعة

---

(١) ابن المبارك / كتاب الجهاد ، ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١١١ .

(٣) محمود شيت خطاب ، قادة فتح العراق والجزيرة ، دار القلم ، القاهرة ، ص ٢٥٧ .

النضال الإنساني باسم الإسلام العظيم ، وحين نتذكرهم اليوم فإنما نسند بقاماتهم العالية هذا الزمان المائل العجيب . .!

إنه اللواء نفسه ، والقادة الفتية يتشابهون ، إن مصعباً وجعفراً ، وحمزة ، وزيداً ، وابن رواحة ، تخرجوا في كلية عسكرية واحدة هي التي حملت اسم الإسلام العظيم . . ومن أجل نصرة هذا الدين أجاز رسول الله ﷺ من هو في سن الخامسة عشرة لقتال العدو ، وأخذ أبو دجانة سيفا من الرسول بحقه (أن تشرب به العدو حتى ينحني) وأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : «أخرج أبو دجانة عصابة الموت» (١) . .

وسيظل سيفه مشرعاً وعصابته مشهورة في أحد وهو يدافع عن النبي ، ويترس عليه بنفسه حتى كثرت النبل في ظهره ، ويكون أن يشهد اليمامة ، ويشارك في قتل مسيلمة ، ويلقى وجه ربه شهيداً وفاء لرسالة الإسلام . . ومثله كان يوم أحد سعد بن الربيع ، وحنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) ، وعمرو بن الجموح الذي أراد أبناؤه (وهم أربعة من المقاتلين الأشداء في جيش النبي ﷺ) منعه من القتال لأنه كان شديد العرج ، فانطلق إلى النبي يشكو الأمر ويعلن أنه يريد الخروج معه ، وأنه ليرجو أن يطأ بعرجته في الجنة . .

ولنقرأ هذا الحوار العظيم :

---

(١) السيرة النبوية ، ٤/١٥ .

«روى البيهقي وأحمد وابن المبارك عن أبي قتادة الأنصاري قال : كان عمرو بن الجموح -شيخ من الأنصار- أعرج ، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر ، قال عمرو لبنيه :

- أخرجوني .

- فذكروا للنبي ﷺ عرجه ، فأذن له في الإقامة وعدم الخروج . ولما كان يوم أحد خرج الناس ، فقال لبنيه : أخرجوني . .

- فقالوا : قد رخّص وأذن لك رسول الله ﷺ .

- فقال لهم : هيهات ، منعتموني الجنة ببدر وتمنعونيها بأحد؟ فخرج إلى أحد ، ولمّا التقى الناس في الميدان قال : يا رسول الله : أرأيت إن قُتِلتُ أطأ بعرجتي هذه الجنة؟

- قال ﷺ : نعم .

- قال : فوالذي بعثك بالحق لأطأنّ بها في الجنة اليوم إن شاء الله!

- وقال عمرو لغلام له يقال له سَليم : ارجع إلى أهلك!

- فقال غلامه : وما عليك أن أصيب اليوم خيراً معك؟

- قال : فتقدّم إذن!

- فتقدم العبدُ ، فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم هو ، فقاتل حتى قتل أيضاً ، رضي الله عنهما»[1] .

---

(١) ابن النحّاس ، أحمد بن إبراهيم ، كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشّاق في فضائل الجهاد ، تهذيب وتقديم صلاح الخالدي ، ط١ ، دار النفائس ، عمّان ، ١٩٩٩ ، ص ٨١-٨٢ .

ومثله سيفعل أنس بن النضر حين كبُر عليه أنه لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، وحين شهد يوم أحد قاتل وهو يقول : واهاً لريح الجنة ، أجدها دون أحد ، فقتل ووجد في جسده بضع وثمانون أثراً من بين ضربة ورمية وطعنة ، فما عرفته أخته إلا ببنانه[1] .

إن صوتاً لسيدة مسلمة يكشف عمق هذا الدين في نفوس الناس ، وهو صوت صفية بنت عبدالمطلب ، وتلك هي وقد أقبلت لتنظر إلى جثمان شقيقها حمزة ، ورسول الله ﷺ يقول لابنها الزبير بن العوام : « القها فأرجِعْها لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمة ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي . قالت : ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك؟ لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال : خلِّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن »[2] .

وفي هذا المناخ العظيم ما روي في السيرة :
«مرَّ رسول الله ﷺ بامرأة ، من بني دينار ، وقد أصيب زوجها

(١) ابن المبارك ، **كتاب الجهاد** ، ص ٩٨ .
(٢) **السيرة النبوية** ، ٤٧/٤ .

وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها ، قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ، قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : كل مصيبة بعدك جلل؟ تريد صغيرة»(١) .

إنها المحنة والتمحيص ، لكن روح الصمود هذه هي التي تسهم في تخريج مثل هؤلاء المقاتلين . والصابرين من مثل عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي الذي يقدم صورة للصبر نادرة والمشركون يقدمونه للقتل ، فقد صلى ركعتين ثم قال للقوم : « أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة»(٢) .

وينشد والقوم قد اجتمعوا لصلبه :

فوالله ما أرجُو إذا متُّ مسلماً
على أيِّ جنْب كانَ في اللهِ مصْرَعِي
فلستُ بِمُبْدٍ للعَدّوِ تَخَشُّعاً
ولَا جَزعاً إنّي إلى اللهِ مرْجِعِي(٣)

إن خبيب بن عدي سيتحول إلى رمز إنساني رفيع تحيطه هالة من الأخبار الكريمة التي تعمق صورته في الوجدان ، ومنها « أن

(١) السيرة النبوية ، ٤/٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ٤/١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ٤/١٣٠ .

النبي ﷺ أرسل المقداد والزبير في إنزال خبيب عن خشبته ، فوصلا إلى التنعيم فوجدا حوله أربعين رجلاً نشاوى ، فأنزلاه ، فحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء ، فندر بهم المشركون ، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض ، فسمّي بليع الأرض ، وذكر القيرواني في حلى العلى أن خبيباً لمّا قتل جعلوا وجهه إلى غير القبلة ، فوجدوه مستقبل القبلة ، فأداروه مراراً ثم عجزوا فتركوه»[1] .

ويظل النموذجان الجعفري (مؤتة) والحسيني (كربلاء) حاضرين في الدولة وهي تنشر الرسالة على امتداد العالم كله ، بل ويظل حاضراً في ساعات ضعفها في فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى . . فصمدوا ضد العجز والخوف والتشظي والهوان . . إنهم الذين سكنتهم روح الشهادة باعتبارها اختياراً للجهاد الذي يحتمل حدين ؛ هي أو النصر . . وبعد أي منهما حياة . . حياة للأمة ، والحق ، أو حياة للشهيد . .

---

(١) الإصابة ، ٤١٩/١ .

مقاتلون ضد الردّة

فارس بطل لا يصطلى بناره ، وهو متميز بين قادة حروب الخلافة ضد المرتدين . . « كان إذا شهد الحرب وعاينها أخذته الرعدة (وانتفض) انتفاضاً شديداً ، حتى كان ربما يعقل بالحبال ، ويضبطه الرجال . فلا يزال كذلك ساعة حتى يفيق ، فإذا أفاق يبول بولاً أحمر كأنه الدم ، ثم إنه يثب (قائماً) مثل الأسد ، فيقاتل قتالاً لا يقوم له أحد ، فلما كان ذلك اليوم ، وعاين من شدة الحرب ما عاين ، أخذته الرعدة والنفضة ، فلما أفاق وثب وجعل يرتجز . . ثم حمل على جمع من بني حنيفة ، فجعل تارة يضرب بسيفه وتارة يضرب برمحه حتى قتل منهم جماعة ورجع إلى موقفه . . »(١)

إنّه البراء بن مالك الذي طلب إلى المسلمين يوم اليمامة أن يلقوه لمواجهة المرتدين في الحديقة التي لجأوا إليها مع مسيلمة ، فقاتلهم حتى فتح الباب وبه بضع وثمانون جراحة من بين رمية بسهم وضربة ، فحمل إلى رحله يداوى ، وأقام عليه خالد بن الوليد شهراً . . ويمر زمان حتى يطلّ الزحف الإسلامي على العراق ، فإذا البراء مع أخيه أنس في الجيش الإسلامي حول

---

(١) انظر المصدر نفسه ١٤٣/١-١٤٤ . والواقدي ، أبوعبدالله محمد بن عمر ، كتاب الردة ، تحقيق محمود عبدالله أبوالخير ، دار الفرقان ، عمان ، ص ١٩٥-١٩٦ .

إحدى حصون العدو ، حيث يلقي الأعداء كلاليب في سلاسل مُحمّاة فتعلق بالإنسان فيرفعونه إليهم ، ففعلوا ذلك بأنس ، فأقبل البراء حتى تراءى في الجدار ثم قبض بيده على السلسلة فما برح حتى قطع الحبل ، ثم نظر إلى يده ، فإذا عظامها تلوح قد ذهب ما عليها من اللحم ، وأنجى الله أنس بن مالك بذلك[1] .

هذا نموذج للمحارب الذي يسعى إلى الشهادة . . وسوف تنتهي حروب الردة بنصر المسلمين ، أما البراء الذي شهد مع رسول الله المشاهد كلها إلا بدراً . . فيلقى وجه ربه مقاتلاً يوم حصن تستر في بلاد فارس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٩هـ في رواية الطبري . وقد كان في هذه المعركة على ميمنة الجيش الإسلامي ، وعلى الخيل أخوه أنس بن مالك ، وعلى الميسرة حذيفة بن اليمان .

وفي معركة «تستر» هذه حصار طويل فرضه المسلمون شهوراً خرج المجوس خلالها ثمانين مرّة لمصادمة المسلمين . . كان البراء هناك استشهادياً إسلامياً لا تلين له قناة ، وقد تذكّر المسلمون قول رسول الله ﷺ : «رُبَّ أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله عزّ وجلّ لأبرّه ، منهم البراء بن مالك» ، فلجأوا إليه يطلبون دعاءه ؛ ورفع البراء يديه إلى السماء وقال : «أقسم عليك يا ربّ

---

(١) الإصابة ، ١٤٦/١ .

لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيّك»[1] .

إنه نموذج خاص بين المجاهدين ، فهو الذي قال لعائديه في مرض ألم به : «لعلكم ترهبون أن أموت على فراشي . . لا والله ، لن يحرمني ربّي الشهادة» . وهو الذي قال الفاروق في جرأته «لا تولّوا البراء جيشاً من جيوش المسلمين مخافة أن يهلك جنده بإقدامه»[2] .

وهو النموذج الذي تقدم إلى صورته مقاتلون عاديون مثل ذلك الذي رواه أبو الحسن المرادي عن علي بن بكّار : « لقد رأيت رجلاً من المجاهدين ببلاد الروم ، وإن أمعاءه على قربوس سرجه ، فأدخلها في بطنه ، ثم شدّ بطنه بعمامة ، ثم قاتل فقتل بضعة عشر علجاً من الروم» [3] .

وهذا مقاتل بدري أُحُديٌّ فذ ، «كان ربما حمل على الرجل فيعانقه ثم يذبحه» [4] . إنه أبو دجانة وتلك سيرته في الحرب

---

(١) ابن الأثير ، عز الدين أبوالحسن علي بن محمد ، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٧٢/١-١٧٣ .

(٢) **مشارع الأشواق** ، ص ١٨٣-١٨٥ .

(٣) **المصدر نفسه** ، ص ١٨٥ .

(٤) **كتاب الردة** ، ص١٩٩ .

متاحة ، وقد استشهد في اليمامة بعد أن شارك في قتل مسيلمة ، وقد روي أنه هو الذي طلب إلى المقاتلين أن يحملوه على ترس بعضهم وأن يلقوا به جوف الحديقة التي هرب إليها مسيلمة وقومه . . فوقع في الحديقة ثم وثب كالليث المغضب وهو يرتجز ، فلم يزل يقاتل في جوف الحديقة حتى قتل[1] .

إن في سيرة الطفيل بن عمرو وابنه عمرو ما يعزّز بهجة الشهادة . المؤمنون في معركة اليمامة صابرون ، وقد قاتل الأب وابنه ببأس طلباً للشهادة ، وقد خرّ الطفيل شهيداً . وعاد عمرو في جيش الإسلام المنتصر معتزاً بأنه خلف يده في أرض المعركة فداء للدين العظيم ، وسيقاتل في اليرموك حتى يلقى وجه ربه شهيداً يوم نصرها العظيم[2] .

إن نصاً آخر عظيماً يرفد هذه البطولات . . إنهم الأنصار ، وأبو دجانة أنصاري ، وأولئك هم : «أقبل عباد بن بشير الأنصاري حتى وقف على باب الحديقة ثم نادى بأعلى صوته : يا معشر الأنصار ، احطموا جفون سيوفكم ، واقتحموا هذه الحديقة عليهم ،

---

(١) وفي الإصابة ١/١٤٣-١٤٤ أن البراء بن مالك هو ذلك الفارس .

(٢) محمد فهمي عبدالوهاب ، **شهداء الصحابة في صدر الإسلام** ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٢-١٩٤ .

فقاتلوهم أبداً ، أو يقتل الله مسيلمة الكذاب»[1] .

وقد فعلوا ، واقتحموا ، وهم عشرون ومئة رجل ، فقاتلوهم حتى ما بقي منهم إلا أربعة نفر فإنهم أقبلوا مجروحين لما بهم . .

إنها المعركة التي ستحسم الأمر للإسلام في الجزيرة ، وشهداؤها من المسلمين (١٢٠٠) منهم (٧٠٠) رجل من حفاظ القرآن . . ويا للتذكر إذ يشتعل عبر التراث حتى يصل زماننا هذا ، فتصعد إلى صروح الشهداء أسماء أبي حذيفة ، وشجاع بن وهب ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، وثابت بن أقرم ، وعكّاشة بن محصن ، ويا لصوت الفاروق وقد بلغه خبر استشهاد شقيقه زيد : «رحم الله زيداً ، سبقني إلى الحسنيين ، واستشهد قبلي»[2] .

أليس الفتية الذين يعيدون صياغة زماننا بالشهادة من ذلك الجذر العظيم . .! إنهم منهم ، لذلك نسجوا رايات النصر لثورة الجزائر ، وحرّروا جنوبي لبنان ، وأعادوا ألق الإسلام العظيم إلى روح المقاومة على امتداد أرض الأمة ضد العدو والطاغية والظالم والخائف . . وتلك أرض فلسطين تحضن دم الشهداء الغالي صباح مساء .

---

(١) انظر الإصابة ١/٥٨-٥٩ ، وكتاب الردة ، ص ٢٠٤ .

(٢) علي سامي النشّار : **شهداء الإسلام في عهد النبوة** ، ص ٢٢٣ .

زمن الفتح الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

صدق الله العظيم

(النصر)

الشهداء الأشقاء :

هذا نموذج فذ للشهادة حين يستحكم الإيمان في الوجدان ، والشهداء سادة من قريش قبل الإسلام ، وقد انتهى بهم الأمر بين يدي رسول الله ﷺ بعد زمن الحيرة الذي انتابهم ، إنهم أبناء سعيد بن العاص : إبان ، والحكم (عبدالله ،كما سمّاه رسول الله ﷺ) ، وخالد ، وعمرو ، وسعيد . . كأنهم العقد الكريم منتظماً بدُرره في معركة التوحيد ضد المشركين . . وها هم في الكتيبة الخضراء يوم فتح مكّة ، ثم حُنين ، ثم حول الطائف ، وفي ساعة النصر كان سعيد يخرّ في ميدان الشرف شهيداً خالداً ، وسيخرج الأربعة الباقون مع النبي ﷺ إلى تبوك ، ويكون خالدٌ كاتباً للرسول ، وإبان أميراً على البحرين ، وعمرو على تيماء وخيبر ، وعبدالله معلماً في المدينة لأبناء المسلمين . وبعد وفاة الرسول ﷺ يعتزلون مواقعهم حتى كانت الردّة ، فخرجوا في جيش الإسلام ، وعندما انجلى غبار المعركة كان عبدالله في صفوف الشهداء وقد احتوشته الرماح من كل جانب . . وعندما انطلقت جيوش الفتح خارج الجزيرة كاد خالد أن يتولى قيادة جيش الشام ، لكنه سار فيه مقاتلاً عظيماً إلى جانب أبي عبيدة ومعاذ بن جبل ، والثلاثة أهل شورى للقادة كما أمر الصّدّيق رضوان الله عليه . . وفي الجيش نفسه سار شقيقاه إبان وعمرو . . وحين انجلى غبار المعركة عن النصر في مرج الأصفر كان خالد يصعد إلى عليين شهيداً .

وفي أجنادَيْن سالت دماء غزيرة في المعركة الخالدة ، وصدق المؤمنون النيّة والعزم على النصر ، وعلى ثراها الطهور حين تحرّرت وصارت في أرض الإسلام غفا إبان وعمرو شهيدين ، ليكتمل النموذج الفذ بالأخوة الخمسة الشهداء[1] .

ولعل المصادر القديمة تسعفنا إلى صور تتابع أبناء الشاعرة الخنساء وهم يتقدمون إلى الوغى في معركة القادسية ، ثم وهم يعبرون من بوابة الشهادة ويستذكرون وصيتها لهم قبيل المعركة ، وهي كما رواها صاحب الاستيعاب : «يا بَنِيَّ ؛ إنكم أسلمْتُمْ طائعين ، وهاجرْتُمْ مختارين ، ووالله الذي لا إله إلاّ هو إِنّكم لبَنُو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحْتُ خالكم ، ولا هجّنْتُ حسَبكم ، ولا غبَّرتُ نسَبكم ، وقد تعلمون ما أعَدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حَرْب الكافرين . واعلموا أنّ الدار الباقية خَيْرٌ من الدار الفانية ؛ يقول الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ . فإذا أصبحْتُمْ غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستَنْصِرين ، فإذا رأيتُم الحرب قد شمَرّتْ عن ساقها ،

---

(١) انظر محمد فهمي عبدالوهاب ، **الشهداء الأشقاء** ، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس .

واضطرمت لظىً على سياقها ، وجللت ناراً على أوراقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالِدوا رئيسها ، عند احتدامِ خميسها ، تظْفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد والمقامة»[1] .

فبلغها الخبر فقالت : «الحمد لله الذي شرَّفنِي بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يَجْمعني بهم في مستقرِّ رحمته» . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعطي الخنساء أرزاقَ أولادها الأربعة لكل واحد مائتي درهم حتى قُبض رضي الله عنه .[2]

ويستمر النموذج الإيماني في التشكل صوراً ومعارك وأضرحة تضيء عتم الزمان إن تعرض الإسلام للخطر . . وتلك الرؤى الطالعة من صفحات التراث هي التي نجمعها في هذه الدراسة لتطل على أرواح المسلمين من جديد . . وبينها صور باهرة ، للمؤمنين الذين ظلوا ينفرون خفافاً وثقالاً حتى لو كان في ظروفهم ما يعذرهم ، وقد خرج المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ للجهاد على ما كان من عظم جسم ، وأصر أبو طلحة الأنصاري على الخروج للجهاد بعد أن غزا على عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ورفض عرض بنيه بأن يغزو هم عنه ،

---

(١) ابن عبد البر أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القسم الرابع ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة ، ص ١٨٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٢٩ .

وغزا في البحر ، فمات رحمه الله ، «فطلبوا جزيرة يدفنونه فيها ، فلم يجدوا جزيرة إلا بعد سبعة أيام ، ولم يتغير جسمه»[1] .

ونقل صاحب مشارع الأشواق أيضاً عن ابن المبارك صاحب كتاب الجهاد ما رواه عن عطية بن أبي عطية : «أنه رأى عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه يوماً من أيام القادسية ، وعليه درع سابغة يجرها في الصف في ميدان الجهاد . وكان عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه أعمى ، ولكنه خرج للجهاد ، واشترك في معركة القادسية وحمل اللواء فيها ، واستشهد فيها»[2] .

وقاتل عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي الترك في (بلنجر) حتى استشهد ، فأخذ الراية أخوه سلمان فنادى المنادي : صبراً آل سلمان بن ربيعة ، فقال سلمان : أو ترى جزعاً؟ وأعاد الكرّة سلمان على الترك في منطقة (بلنجر) ايضاً فاستشهد هناك[3] .

---

(١) انظر مشارع الأشواق ، ص٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣٣ .

(٣) محمود شيت خطاب ، قادة فتح الشام ومصر ، ط١ ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣٨ .

عكرمة : قائد الكتيبة الاستشهادية

وقصة الكتيبة الاستشهادية التي قادها عكرمة استمرار للروح الجعفرية في مؤتة ، وفي معارك المسلمين ضد المرتدين ، فعكرمة الذي قاتل مسيلمة وجماعته من بني حنيفة ، ثم توجه لقتال المرتدين في نواحي عُمان ومهره وصنعاء ، سينطلق إلى بلاد الشام مؤازراً لخالد بن سعيد في معاركه الصعبة في انطلاقة الفتح الأولى في المدى الممتد حتى دمشق إلى أن توحدت جيوش فتح االشام ، ووصل خالد بن الوليد من العراق ، وفي ساعات اليرموك الفاصلة كان عكرمة على إحدى مجنبتي الجيش ،.وحين انكشف جزء من ميمنة الجيش الإسلامي ومالوا ناحية القلب أحس عكرمة بالموقف العصيب فنادى :

«أيها المسلمون ، من يبايع على الموت»؟ فبايعه عمه الحارث ، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانه ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى جرحوا جميعاً ، وقتل منهم خلق كثير منهم ضرار بن الأزور» .

وروي أن خالد بن الوليد أمر بعد نهاية المعركة أن يحمل إليه عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن عكرمة ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ، ورأس عمرو على ساقه ، وجعل يمسح وجوههما ، ويقطر الماء في

حلوقهما»[١] .

هذا هو القائد الشاب الشهيد الذي أعاد الإسلام صياغة روحه منذ أن أعلن إسلامه بعد فتح مكة ، ونسج الناس من فروسيته حكايات عظيمة ، وهو مقاتل ضد المرتدين ، وهو مع القعقاع بن عمرو التميمي علي مجنبتي قلب جيش الإسلام ، ثم وهو ينادي في الناس : من يبايعني على الموت ، ويقود كتيبته الاستشهادية هذه يلقى بها فيلق الروم ويزلزله ، وقد قاتل وصحبه قدّام فسطاط القائد الكبير خالد بن الوليد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً ، وصار عكرمة نموذجاً للفداء العظيم والاختيار الحرّ الإرادة ، لأن اللواء لا يسقط والجيش الفاتح لا يتراجع ، ذاك هو صريع وبه بضع وسبعون ما بين طعنة وضربة ورمية ، وابنه عمرو جريح مثله ، والحكاية لا تنتهي ، إنهما بين يدي القائد ، أو كما تقول الرواية تعددت نسبة أحداثها إلى فرسان مسلمين في اليرموك- مع الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وقد أتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه ، كلما دفع إلى رجل منهم قال : اسق فلاناً ، حتى ماتوا ولم يشربوه[٢] .

---

(١) انظر التفاصيل في محمد إبراهيم نصر ومحمد مصطفى سلام ، **عكرمة ابن أبي جهل قائد الفرقة الانتحارية في اليرموك** ، ط٢ ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ١٩٨٢ .

(٢) محمود شيت خطاب ، **قادة فتح الشام ومصر** ، ص٩١-٩٣ . وانظر رؤية ثانية في : ابن المبارك ، **كتاب الجهاد** ، ص٢٢ .

وفي رواية أن عكرمة قتل في معركة أجنادين أو غيرها ،لكن الروايات كلهـا تراه أعظم الناس بلاءً ، وأنه كـان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقيل له : اتق الله وارفق بنفسك فقـال : «كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعُزّى فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله؟ لا والله أبداً»(١) .

النعمان بن مقرن ، قائد نهاوند/فتح الفتوح

وهذا شهيد قائد عرفته حروب الفتح في بلاد فارس وهو قائد المعركة الكبيرة (نهاوند) في زمن الفاروق رضوان الله عليه . إنه النعمان بن مقرن الذي اختاره الخليفة بعد أن عزل سعداً عن ولاية العراق بعد القادسية بزمان يسير . فحين علم عمر بجموع الفرس الكثيفة استشار سعداً وفكّر أن يسير بنفسه لقيادة المعركة في نهاوند واختلف الصحابة بين مؤيد ومعارض ، وانتهى الأمر إلى أهمية بقاء الخليفة في المدينة . . آنذاك قال الفاروق :

- أما والله لأولّين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنّة إذا لقيها غداً .
- قالوا : من يا أمير المؤمنين؟
- قال : النعمان بن مقرن المزني .

---

(١) الإصابة ٦/٤ .

كان النعمان أحد قادة الفتح في الأهواز وتستر وغيرهما ، وقد استعمله سعد قبل عزله على خراج ما سقى دجلة ، فكتب النعمان إلى الخليفة يشكو جباية الخراج ، ويرجو أن يعيده إلى الجهاد في جيش من جيوش المسلمين[1] . فولاّه عمر قيادة الجيش المتوجه إلى نهاوند . وحين تجمع الجيش الكبير الذي أمر به الفاروق ، وفيه نخبة من قادة المسلمين منهم حذيفة بن اليمان ، قال الخليفة القائد إنه يجعل النعمان قائداً للجيش كله ، فإن حَدَثَ له حَدَثٌ فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حَدَثَ بحذيفة حَدَثٌ فعلى الناس بنعيم بن مقرن . . أليس هذا صدى رائعاً من تتابع قادة مؤتة الثلاثة!! .

إنها فرصة النعمان أن يدخل التاريخ مثل خالد بن الوليد ، وسعد بن أبي وقاص ، وفي جيشه نخبة من القادة الأوائل وأهل الرأي . وقد تقدم وجيشه على تعبئته ؛ على مقدمته نعيم بن مقرن ، وعلى ميمنته حذيفة بن اليمان ، وعلى الميسرة سويد بن مقرن ، وعلى الفرسان القعقاع بن عمرو ، ويسوق مؤخرته مجاشع بن مسعود ، وكان في الجيش عبدالله بن عمر ، وجرير بن عبدالله

---

(١) انظر خبر الرسالة ، ورسالة عمر إلى سعد بن أبي وقاص ليبعث بالنعمان إلى نهاوند في : الطبري ، محمد بن جرير ، **تاريخ الطبري** ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ٥١٨/٢ ، وانظر فيه أيضاً رسالة عمر إلى النعمان وتعليماته حول المعركة .

البجلي ، وحنظلة كاتب الرسول ﷺ . . إنه لممّا يُغري الباحث هنا أن يتتبع الإخوة أبناء مقرن وقد حملهم الإسلام من مواطن مُزينة إلى مدينة الرسول عليه السلام ، مروراً بأرض الجزيرة والعراق إلى ذلك المكان من بلاد الفرس المسمى «نهاوند» حيث جمع الفرس سائر من ظل قادراً على القتال بعد هزائمهم المريرة ، وقد بلغ عددهم مئة وخمسين ألف مقاتل ، أي بزيادة ثلاثين ألفاً على جيشهم في القادسية . .

وبدأت المعركة ليومين متتاليين ، واستمر التقدم والتراجع ، وعقد القائد مؤتمراً لأركانه ليبحثوا طرق إخراج الفرس من حصونهم وخنادقهم ، واتفقوا على استدراجهم خارجها ونجحوا في ذلك ، والنعمان مسيطر على حركة المعركة ، يطوف صفوف المسلمين على حصان أحمر يخالطه سواد كلون صدأ الحديد ، يخطب في جنده ، ويذكرهم وعد الله لهم بالنصر ، والموقف الخطير الذي فيه يقفون ، والخيارين الكبيرين : النصر أو الشهادة ، ثم يعلن أنه سيكبر ثلاثاً لتبدأ المعركة الكبرى ، ثم اندفع النعمان يحمل اللواء ، وهو مميز بقباء أبيض وقلنسوة بيضاء ، والناس لا تسمع إلا وقع الحديد ، ثم حمي الوطيس وكثر القتلى وبدأت الخيل تنزلق في الدماء ، وبينها ، حين حل الظلام ، فرس النعمان ، حيث لقي مصرعه ، ويذهب ابن اسحق وغيره إلى أنه رمى بنشّابة أصابت خاصرته فقتلته .

كان شقيقه نعيم قريباً منه لأنه قائد المقدمة ، فرأى مصرعه ،

وكما فعل أهل مؤتة حمل اللواء قبل أن يقع ، وسجّى شقيقه الشهيد بثوب ، وسلّم اللواء إلى حذيفة بن اليمان قائد الميمنة ، وتقدم حذيفة إلى القلب وأخذ بنصيحة المغيرة بن شعبة في كتمان خبر مصرع القائد لما له من مكانة عند جنده ، وكلما تقدم الظلام تراجع الأعداء حتى وقعوا في خندق عميق اسمه اللهب ، وقيل إن عدد قتلاهم فيه ثمانون ألفاً وفي المعركة ثلاثون ألفاً . وحين جاء نصر الله تلفّت المسلمون يتساءلون : أين أميرنا ، فقال شقيقه معقل : هذا أميركم ، قد أقرَّ الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة . وتقول رواية إن النعمان قد ظل به رمق حتى سمع بشرى الفتح وقال : اكتبوا إلى عمر ، ثم غفا على ثرى «نهاوند» .

لا أود أن ينتهي هذا المشهد دون الإشارة إلى وقع خبر استشهاد النعمان على عمر الذي قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . ثم بكى ونشج ، ثم صعد إلى المنبر فنعى النعمان ووضع يده على رأسه وبكى[١] .

---

(١) أحمد عادل كمال : **شهيد نهاوند النعمان بن مقرن المزني** ، عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٨١ ، وانظر فتح نهاوند في البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، **فتوح البلدان** ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ص ٣٠٠-٣٠٤) ،ومحمود نصير بك ، **أبطال الفتح الإسلامي من العرب والترك** ، ط٢ ، مطبعة خلف بمصر ، ص ٩١-٩٩ .

إن حكايات الفتح في بلاد فارس غزيرة وذات دلالات خاصة ، ومنها حكاية عروة بن زيد الخيل الطائي ، هذا البطل الذي قاتل في معركة الجسر قتالاً شديداً عدل بقتال جماعة ، وكان رسول القائد المثنى بن حارثة الشيباني إلى عمر بن الخطاب بخبر معركة الجسر (١٣ هـ) التي كانت من أشد المعارك ضراوة على المسلمين ، وقد كثرت الجراحات وفشت في المسلمين . . وقد ظل عروة حزيناً لأنه كان من حمل الأخبار السيئة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، وبعد نهاوند (١٩هـ) طلب الخليفة من عمار بن ياسر عامله على الكوفة أن يبعث عروة بن زيد إلى الري ودستبى في ثمانية الآف مقاتل ففعل ، وأظهر الله عروة على الأعداء فاجتاحهم ، ثم خلّف أخاه حنظلة وقدم على عمار يسأله أن يوجهه إلى عمر بن الخطاب لسبب رائع ، وهو أنه كان القادم عليه بخبر الجسر ، فأحب أن يأتيه بما يسرّه ، وعندما رأى الخليفة القائد نفسه بين يديه خشي أن المعركة لم تكن لصالح الإسلام ، لكن عروة بشره بالنصر . . فسمّاه البشير[1] .

---

(١) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٥٢-٢٥٣ و ص ٣١٣ ، وانظر محمود شيت خطاب ، قادة فتح بلاد فارس (إيران) ، ط١ ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص٩٧- ١٠٧ ، وهو يشير إلى أبناء مقرن العشرة ، وجميعهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن القادة والمقاتلين في الجيوش في زمانهم .

ويقدم الواقدي في أخباره عن الفتوحات حكايات يختلط فيها التاريخ بالحس القصصي ، فنرى أبطالاً يندفعون إلى الحرب والشهادة ، ويصيرون رموزاً شعبية خالدة بعد أن كانوا حقيقة تاريخية محددة الدور والأخبار ، ومن ذلك أخباره عن البطل ضرار بن الأزور في فتوح الشام ، وكيف كان يندفع إلى الحرب وقد جلس عارياً بسراويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول ، رغبة منه في الشهادة[1] .

وفي رواية أخرى للواقدي أن أوّل من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلام من الأزد حَدَثٌ ، وقد استأذن من القائد أبي عبيدة أن يأذن له بالخروج إلى المبارزة حيث جندل أربعة من جنود الأعداء ، وفي النزال مع الخامس خرَّ شهيداً . . والجميل في هذه الرواية أن الفتى الأزدي قال لأبي عبيدة :

«إني أردت أن أشفي قلبي وأجاهد عدوّي وعدو الإسلام . . لعلي أرزق بالشهادة ، فهل تأذن لي في ذلك؟ وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها . قال : فبكى أبو عبيدة وقال : اقرئ رسول الله ﷺ السلام ، وأخبره أنّا وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً»[2] .

---

(١) الواقدي ،أبوعبدالله محمد بن عمر ، **فتوح الشام (١)** ، ط١ المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٣٨-٤٥ . وانظر أيضاً الواقدي ، **فتوح أفريقية** ، جـ١ ، تونس ، ١٩٦٦ وفيه أخبار تاريخية وروائية جميلة عن عبدالله بن جعفر .

(٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ١٨٩/١ .

- ذاك هو معاذ بن جبل يودّع ابنه عبدالرحمن شهيد اليرموك وليس بينه وبين الجنة سوى لحظات[1] .
- وذاك هو عبدالله بن الزبير بن عبدالمطلب يلقى وجه ربه شهيداً وسط عشرة من الروم قتلهم قبل أن يُقتل ، وسيفه في يده ، وفي وجهه ثلاثون ضربة[2] .

أما أبو عُبيد الله بن مسعود الثقفي شهيد يوم الجسر وقائده ، فقد تتابع بعده سبعة من ثقيف ، كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يستشهد ، ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة الشيباني الذي سيخرج من يوم الجسر جريحاً وهو يحمي عبور جيشه ، ثم نَغَرَ الجرح وزمان القادسية قريب : فمات شهيداً قبل وصول سعد بن أبي وقاص لقيادة المعركة الفاصلة[3] .

سيقود عاصم بن عمرو كتيبة الأهوال في فتح المسلمين للمدائن ، ويقود شقيقه القعقاع الكتيبة الخرساء ، ويقاتل طليحة بن خويلد الأسدي[4] إلى جانب عمرو بن معد يكرب بألف فارس ، ويندفع أبو محجن الثقفي وهلال بن علقمة إلى الحدود

---

(١) زياد أبوغنمية ، مواقف بطولية من صنع الإسلام ، عمّان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٣ .

(٢) مشارع الأشواق ، ٣٦١ .

(٣) انظر محمود شيت خطاب ، قادة فتح العراق والجزيرة ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٢١٧ .

(٤) محمود شيت خطاب ، قادة فتح الشام ومصر ، ص٣٣٧ وقادة فتح بلاد فارس ، ص ٢٨٥ .

القصوى في الشجاعة ، وكلهم متقدّم إلى الشهادة كما فعل القارئ سعيد بن عبيد حين خطب الجيش عشية استشهاده :

«إنّا ملاقو العدوّ غداً ، وإنا مستشهدون ، فلا يغسلنّ عنا دمٌ ولا نكفّن إلاّ في ثوب كان علينا»[1] .

ومنهم قتيبة بن مسلم الباهلي الذي يطل برايات الإسلام على الصين ، بينما الشهيد سليمان بن ربيعة الباهلي يقاتل في أرمينية ، حتى نادى عليهما ابن جمانة الباهلي :

وإنّ لنا قبرْين : قبر بلنجر
وقبر بصين ستان يا لَكَ مَن قَبْرِ
فذاك الذي في الصّين عمتْ فتُوحه
وهذا الذي يسقى به سبل القطْرِ[2]

أما هشام بن العاص فهو من أهل اليرموك ، وكان يحمل على الروم فيقتل النفر منهم في حملته إلى أن قتل[3] .

وهذا فارس في الجيش الإسلامي المحاصر للقسطنطينية في الزمن الأموي ، إنه عبدالعزيز بن زرارة الكلابي ، ويروي ابن الأثير

---

(١) محمد فهمي عبدالوهاب ، **شهداء الصحابة في صدر الإسلام** ، ص ١٧٢ .

(٢) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٢٠٦ .

(٣) **مشارع الأشواق** ، ص ٣٥٧ .

حكايته على النحو الآتي :

«وكان في هذا الجيش ابن عبّاس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصاري ، وعبدالعزيز بن زرارة الكلابي ، فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام ، واشتدت الحرب بينهم ، فلم يزل عبدالعزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل . . ثم حمل على من يليه فقتل فيهم ، وانغمس بينهم ، فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه رحمه الله[1] .

إن التعرض للشهادة يخلف حسرة إن لم يصدق الوعد كما تشير قصة ابن زرارة ، ولعّل من المناسب أن نتذكرّ هنا أن خالد بن الوليد قد أحسّ بهذه الحسرة ، وهو الفاتح العظيم ، لأن الشهادة لم تقدّر له ، فقد قال حين حضرته الوفاة :

«لقد طلبت القتل في مظانّه فلم يُقَدَّرْ لي إلاّ أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرجى عندي ، بعد لا إله إلا الله ، من ليلة بتّها وأنا متترّسٌ والسماء تهلّني ، تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفّار . ثم قال : إذا متّ فانظروا في سلاحي وفرسي ،

---

(١) ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ، **الكامل في التاريخ** دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٥ ، ٤٥٨/٣ .

فاجعلوه عدّة في سبيل الله»[١] .

لقد تقدم أبو أيوب الأنصاري شهيداً في بلاد الروم وفي روحه وعدٌ بفتح هذه المدينة ، وفي الزمان نفسه كان عقبة بن نافع يقف عند بحر الظلمات مجاهداً وقد مدّ نور الإسلام عبر شمالي إفريقيا كله ، وسيلقى وجه ربّه شهيداً وهو عائد إلى القيروان سنة ٦٣هـ . بينما زهير بن قيس يخرّ شهيداً في فتوح المغرب الكبير[٢] .

وفي الزمان نفسه يصل قثم بن العباس بن عبدالمطلب إلى سمرقند حتى يلقى وجه ربه شهيداً سنة ٥٧هـ ، ومقامه فيها معروف إلى أيامنا هذه ، وقد قال عبدالله بن العباس حين بلغته وفاته :

«شتان ما بين مولده ومقبره . فأقبل يصلي ، فقيل له : ما هذا؟! فقال : أما سمعتم الله يقول : «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»[٣] .

---

(١) الإصابة ٤١٥/١ .

(٢) انظر في استشهاد عقبة : ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ، ص ٢٦٢-٢٦٩ ، وفي زهير بن قيس ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ .

وفي مكران ، وفي غمرة الاندفاع العظيم نحو الهند والصين ، يستشهد من القادة سعيد بن هشام بن عامر الأنصاري بمكران ، وعبدالله بن سوار بن همام العبدي ، والحارث بن مرة العبدي في الهند[١] .

أما الجراح بن عبدالله الحكمي ، والي أرمينية في البلاد الجديدة ، فقد هزم الخزر ، ثم لقي وجه ربه في إحدى معاركه عند أحد الأنهار ، فسميّ ذلك النهر «نهر الجراح» وينسب جسر بني عليه إلى «الجراح»[٢] .

سأتقدم في الزمان بعيداً لنرى كيف يظل اللواء عالياً والرسالة حاضرة ، وأعني فتح القسطنطينية ، فقد توالت زحوف الإسلام عليها بقيادة معاوية (٦٥٤م) ، ويزيد (٦٦٧م) ، وسفيان بن عوف (٦٦٧م) ومسلمة بن عبدالملك (٧١٥م) ، وسليمان بن عبدالملك (٧٣٩م) ، وهارون الرشيد (٧٨١م) ، وعبدالملك قائد جيوش هارون

---

(١) أنظر أبو المعالي أطهر المباركبوري ، **العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين** ، دار الأنصار ، القاهرة .

(٢) البلاذري ، **فتوح البلدان** ، ص ٢٠٨ ، وانظر الذهبي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد ، **كتاب دول الإسلام** ، إدارة احياء التراث الإسلامي ، قطر ، ٧٧/١-٧٨ . وانظر استشهاد أمير الناس سَوْرة الدارمي في وقعة مشهورة بظاهر سمرقند ، سنة ١١٣هـ ، ص ٧٨ .

الرشيد (٧٩٨م) . . ثم تدخل الأمة في صراعها مع الصليبيين والتتار ، ومع ظروفها الداخلية ، حتى يستأنف العثمانيون الفتح بقيادة بايزيد الأول (١٣٩٦م) و (١٤٠٢م) ، وموسى بن بايزيد (١٤١٤م) ومراد الثاني (١٤٢٢م) ، وأخيراً الفاتح العظيم محمد الفاتح (١٤٥٣م) .

وَعْدُ أبي أيوب ناجز إذن سنة ١٤٥٣م ، والاستشهاديون يندفعون بروح يرموكية كما فعل عكرمة وصحبه ، ففي اللحظات الحاسمة من المعركة حول السور صعد المقاتلون إليه في معركة هائلة ، والمدافعون يرمونهم بالأسلحة والنار والحديد :
«إلى أن استطاع أحد الجنود الانكشارية الضخم ، وهو حسن طوبال ، الصعود إلى أعلى السور أمام مطر منهمر من النبال والسهام ، وراح سبعة عشر من رفاقه ضحية هذه المحاولة البطولية الجريئة ، ومع أنه أصيب بقذيفة ، فظل يقاتل حتى قتل عندما انقض عليه الجنود الأعداء ، ولكنه مهّد السبيل بدمه للآخرين من الجنود الأتراك ، فصعدوا بالسلالم فوق السور!!(١)

سيدخل محمد الفاتح إلى القسطنطينية فاتحاً عظيماً ، ويستيقظ أبو أيوب الأنصاري بعد ثمانية قرون ليلتقي هذا المجاهد

---

(١) سيد رضوان علي ، محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ، ط١ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ص ٣٤ .

الفاتح ، فقد صدق الوعد . . ويعثر العثمانيون على قبر أبي أيوب عند أسوار المدينة التي صارت مدينة الإسلام ، فيأمر السلطان الفاتح ببناء جامع عظيم عند قبر أبي أيوب ، وبعد تمام بنائه يذهب إليه في موكب عظيم ، وبعد الصلاة يقلده الشيخ شمس الدين سيفاً بيده ، وتصبح من تقاليد العثمانيين عادة أن السلطان الجديد لا بدّ أن يذهب إلى جامع أبي أيوب ليتقلد السيف[1] .

وكأن وعد أبي أيوب يفتح الطريق لحلم جديد ، ولا بدّ من تذكّر الحكاية العظيمة نفسها حتى يستمر الفتح عبر الفضاء الأوروبي . فعندما تقدم سليمان باشا ابن السلطان أورخان الأول في بلاد الروم ، واستولى على مراكبهم في شاطئ الدردنيل ، نقل بها ثلاثين ألفاً من جنوده إلى الشاطئ الأوروبي ، واستولى على ميناء نزنيب وغاليبولي سنة ١٣٥٧ . وعندما سقط عن جواده ولقي وجه ربه شهيداً أمر أبوه بدفنه على ساحل الدردنيل بالشاطئ الأوروبي ليكون حافزاً على فتح أوروبا[2] .

إنهم الورد الطالع من إشراقات الإسلام ، وهم فجره وضحاه ، وقد أجاد أعشى همذان حين تراجع الجيش الذي كان فيه وهم بالسغد ، وتحسّر أنه لم يخرّ صريعاً على طريق الشهادة :

---

(١) انظر التفاصيل في أحمد بن زيني دحلان ، **الفتوحات الإسلامية** ، ج٢ ، الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص١٢٦-١٢٩ .

(٢) انظر محمود نصير بك ، **أبطال العرب والترك** ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

ليت خـيلي يوم الخـجندة لم تهـ
زمْ وغـودرتُ في المكرِّ سليـبـا
تحـضـرُ الطيـر مـصَـرعي وتروحـ
ـتُ إلى الله في الدماءِ خضِيبا(١)

الحسين بن علي : الكربلائي العظيم

وكانت كربلاء سنة ستين للهجرة ، وكان اختيار الحسين بن علي طريقه للثورة وهو على بينة من الظروف التي قد لا تجعل دروبها نحو الانتصار سمحة واضحة ، .. ففي السنوات السابقة قتل الإمام علي ، ومات الحسن مسموماً ، ومات أبو ذر ، وقتل عمار بن ياسر ، واشتدت سطوة السلطة الأموية ، والصراع بين الخلافة والملك ، وكان سلاحه الوحيد هو الاندفاع حتى النهاية نحو ساحات القتال في كربلاء .. وهو يعرف لماذا يموت وكيف يجب أن يموت ، فالشهادة إيمان استحكم ، واختيار واع لمن نفض يديه من الحياة ، وقرر التصدي للتسلط والاضطهاد .

كان عليه وصحبه أن يقدموا نموذجاً رفيعاً في السمو نحو المثل الإسلامي الأعلى ، ألا وهو الحضور الذي يتحقق بعد الشهادة ، حضور الرمز والرؤية ممن حرصوا على الحرية والعدل والكرامة ، وإن

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠٣ .

عجزوا عن انتزاع هذه ، فإن عليهم أن يقتحموا ساحة الموت طلباً للشهادة حتى لا تموت الفكرة النبيلة ، أو يمحى الصبر الإنساني على نوازل الزمان الذي كان يمكن أن يظل خاضعاً لظالم وجلاد ومستبد لولا الشهداء الذين تخضبت أرواحهم بالصبر والعناد ؛ الشهداء الذين يولدون لحظة يموتون ، ويصيرون نجوماً تضيء دروب المسلمين جيلاً بعد جيل .

ومن صبر الحسين بن علي في كربلاء ، ومن رفضه المطلق لنصائح الذين قالوا له إن الثورة غير ممكنة ؛ وما ظل غير الانصراف إلى بث العلوم والمعارف الدينية والفقهية ، تبدأ طريق جديدة ، وتصير الشهادة في كربلاء نموذجاً رفيعاً للدفاع عن الحق في مواجهة الطغيان ، وقد ظلّ الحسين على موقفه لأنه بطل تاريخي يستجيب لنداء الثورة على الظلم ، ويرفض الزمان-الليل ، ويضيء دروب العتم بدم أهله وهو يسري نجيعاً طاهراً ليس على الثرى فقط ، بل في عروق التاريخ الإسلامي إلى آخر الزمان .. إنه «معلم الشهادة» ، ومؤسس المبدأ الحسيني العظيم[1] .

(١) انظر علي شريعتي ، **الشهادة** ، دار التوجيه الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ ، وانظر إبراهيم الحيدري ، **تراجيديا كربلاء ؛ سوسيولوجيا الخطاب الشيعي** ، ط١ دار الساقي ، بيروت ١٩٩٩ ، والشيخ محمد مهدي شمس الدين ، **أنصار الحسين ، دراسة عن شهداء ثورة الحسين ؛ والرجال والدلالات** ، ط٣ ، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٦ ، سلوى العمد ، **الإمام الشهيد في التاريخ والأيدولوجيا ؛ شهيد الشيعة مقابل بطل السنّة** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

من هذه الروح «الحسينية» تستمر فكرة الثورة على الاستبداد ، كما استمرت من الروح «الغفارية» فكرة الثبات على المبدأ في وجه السلطة الظالمة ، وستطل وجوه غيلان بن مروان ، وفرسان من الخوارج ، وسنرى في صفحات الأرض والتاريخ مقاتل الطالبين ، وسعيد بن جبير ، والبهلول بن راشد ، وسعيد بن المسيب ، ويحيى بن يعمر ، وعمرو بن عبيد ، والمنذر بن سعيد ، والحلاج ، والسهروردي وكثيرين غيرهم على امتداد النضال الذي ستكمل دورته الصحوة الإسلامية في زماننا القريب هذا ، ويرحل على دروبه فرسان شهداء يمتدون من الجزائر إلى فلسطين[1] .

لقد صارت روح كربلاء حالة روحية ثورية ، فظل صوت الحسين بن علي حاضراً وهو يعلن : «ألا وإني زاحف بهذه الأسرة ، مع قلة العدد ، وكثرة العدو ، وخذلان الناصر» . ثم وهو

---

(١) انظر في مواقف العلماء ضد الطغيان : حسين مروّة ، **تراثنا كيف نعرفه** ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ . هادي العلوي ، **فصول من تاريخ الإسلام السياسي** ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، قبرص ، ١٩٩٥ ؛ أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم ، **كتاب المحن** ، تحقيق يحيى الجبوري ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣ . محمد عمارة ، **مسلمون ثوّار** ، ط٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

يتحول إلى رمز جمع بين إمامة الشهيد وإمامة البطل[1] .

إن الفكر العربي وهو يلتمس طرائقه في البحث عن رموز تسند الحرية ، وتعمق حالة الرفض لما هو سلبي واستخذائي ، وتنشر روح الثورة على الاستبداد ، إنما يستند إلى الحسين بن علي عبر مسارب الدروب إلى روح كربلاء ؛ العقيدي منها والتعبوي ، والتراجيدي ، ولعله واجد في هذه علامات على طريق العودة إلى الينابيع الأولى التي انبثقت في دولة النبوة الحافلة بالقوى الجديدة ، الملتزمة بالمناقب الإسلامية ، ولعلّ نضال الدم المتصل بنضال العقل بعد كربلاء ، سيبث حالة وعي جديد فيه من التنوير والرفض للتجزئة ، والتصدي للاستبداد ما يعزز ثقة الأمة بقدرتها على التجاوز إلى زمان جديد .

إن عطشاً للحرية في زمن الهجيرة هذا يذكرنا بعطش آل الحسين ، وإن ظلماً يقع في زماننا يحتاج إلى صبر مثل صبر الحسين ، وإن تغييراً لا بد أن يكون يحتاج إلى روح ثائرة تستمد غضبها وأوارها من روح الحسين ؛ فهل يمكن أن نرى حركة إسلامية تجديدية شاملة تستعيد روح زمان النبوة ، والزمن الراشدي ، وصبر كربلاء ، ودم الشهداء والعلماء الثائرين على امتداد تاريخنا ، لعلنا نبدأ ، على الرغم من الزمان الصعب ،

---

(١) انظر خليل أحمد خليل ، **العقل في الإسلام** ، ط١ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٣ ، ص ٢٥٨ .

والطريق الطويلة ، والأمل البعيد !!

لقد مات الحسين لا كما يشاء الموت بل كما تشاء العقيدة ، كما يقول الشيخ عبدالله العلايلي ، وقد عبّرت استهانته بالحياة وبالموت عن النموذج الجعفري مرّة ثانية ، وتجلّت عظمة موقفه في صورة إنسانية نادرة التكرار ، وقد كتب عبدالله العلايلي في واحد من نصوصه الجميلة يقول عن الحسين بن علي :

« . . وكذلك استهان بكل شيء ما عدا مبدأه . تصوّروا رحمكم الله ، أنصاره يُخطفُ الواحد منهم بعد الآخر بمرأى منه ومسمع ، وأبناؤه يُطوّح بالواحد بعد الآخر على أمرِّ منظر وأفظعه ، وحُرَمُهُ يتفجعّن بين يديه وهو يتلوى من شدة الظمأ ، وجحد الجاحدين ، ومع ذلك لا نراه إلا الحسين (ع) الرجل الذي يقدّس مبدأه ولا يلين ، ويستعذب كل هذا على خيانة الضمير وخيانة المبدأ المقدّس ، وهو يشعُّ بأنوارهِ السّاطعة بين ناظريه ، وكلماته السحرية تفعل في نفسه فعلها : الله ، رسوله ، القرآن»[1] .

لقد رسم حمزة بن عبدالمطلب صورة البطل الذي يتصدى للمشركين ، وقدم جعفر بن أبي طالب ، صورة القتال ضد العدو حتى النصر أو الشهادة ، وأضاء الحسين بن علي الدروب ضد

---

(١) الشيخ عبدالله العلايلي : سمو المعنى في سمو الذات أو أشعة من حياة الحسين ، ط٤ ، دار الجديد ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ١٣٤ .

الظلم والقهر والاستبداد حتى لا يظل الحق غريباً . . قدم نموذجه الكربلائي في تراجيديا الظمأ والشهادة ، وقد سار عليه من أهل الأمة مؤمنون وصادقون وصابرون حتى زماننا هذا .

عبد الرحمن الغافقي : نجم بلاط الشهداء

هذا هو أعظم قائد مسلم عرفه الغرب في زمانه ، وهو قائد «بلاط الشهداء» التي عبر إليها من جبال البرانس لفتح بلاد الغال (فرنسا) ، وقاتل حتى وصل إلى سهل بواتييه ، على مسافة مئة ميل من باريس ، واحتل مدينة بوردو ، وعند حدود دمه الشهيد في رمضان سنة ١١٤هـ توقف زحف الجيش الإسلامي على أوروبا ، الزحف الذي سيحاول عبدالرحمن الداخل مده في الحلم الكبير بالعودة إلى دمشق عبر أوروبا والقسطنطينية ، وجعل البحر الأبيض المتوسط عربياً إلى آخر الزمان[١] .

يروي شكيب أرسلان في تعليقاته على هذه المعركة أن العرب يقولون إن عدداً كبيراً جداً من رجالهم استشهدوا في بلاط الشهداء . . ويقولون « إنه لا يزال يسمع هناك دوي خفيٌّ هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

---

(١) انظر محمد عبدالله عنان - **أندلسيات** ، كتاب العربي ٢٠ ، الكويت ، ١٩٨٨ ص ١٥-٢٢ .

المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربّهم[1] .

لم يكن دمه أول الطريق ، بل سبقه الشهيد القائد السمح بن مالك الخولاني ١٠٢ هـ ، وتبعه عقبة بن الحجاج السلولي في بلاط الشهداء الثانية بعد ذلك بسنوات وأخبارهم ورفاقهم تملأ كتب الفتح الأندلسي[2] .

ومن شهداء قادة المسلمين في الأندلس أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، الوزير القائد ، وكانت معاركه كبيرة في حرب الإسبان ، ومن أهمها معركة جرت سنة ٥٠٣ هـ وقد تعرض

---

(٢) شكيب أرسلان ، **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ .

(١) انظر **البيان المغرب** ٢٦/٢ ، ٢٩ . وانظر في وصف شجاعة السمح بن مالك كما رواه المؤرخ جوزيف رينو ، إذ يصف معارك السمح بعد محاصرته لمدينة اربونة ، وتوغله نحو تولوز وحصارها ، ويشير إلى ما رواه المؤرخون العرب عن هذه المعركة ، ومقتل السمح : . . وكان السمح يظهر في كل مكان في ساحة القتال ، وكان يتقمص شجاعة الأسد ، وكان يستحث رجاله على القتال بالصوت والإشارة . ويقولون إن الجنود كانوا يتعرفون على الممر الذي سلك بأثر الدّماء التي تجري فيه ، والتي تركها سيفه . ولكنه بينما كان يقاتل في قلب المعركة أصابه رمح وأسقطه عن فرسه» ، جوزيف رينو ، **الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا** ، تعريب اسماعيل العربي ، ط١ ، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ، ص ٥١ .

الجيش الإسلامي لضغط هائل وضعف نفوس بعض « أهل المداهنة» في الدين : « وأثبت القائد أحمد بن محمد بنفسه ، وأظهر الصبر ، ودافع مدافعة الموطن ، وقيل إنه كان قد اعتقد مذهبا في طلب الشهادة ، فاستشهد القائد المذكور . . واستشهد من المسلمين معه من آثَر الشهادة ، ورغب عن خزي الفرار ، ولم يول المشركين دبرا ولا أراهم نكوصاً ولا فراراً» [1] .

وفي السياق الأندلسي تُذكر بطولات المنصور بن أبي عامر (وزير هشام بن الحكم) ، فقد تولى السلطة ستاً وعشرين سنة غزا فيها أرض الفرنج اثنتين وخمسين غزوة ، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف ، وتوفي في غزاته سنة ٣٩٣هـ ، وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحفّ به ، وبين يديه ، إلى أن وصل إلى مدينة سالم .

وتشكل أخباره رمزاً للقائد الفاتح في التاريخ الإسلامي ، « . . ومن ذلك أيضاً أنه خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره ، يدرس فيه ويتبرك به» [2] .

---

(٢) البيان المغرب ، ٢/١٧٠-١٧١ .

(١) المقرّي ، نفح الطيب ، ١/٤٠٩ .

ومنها أيضاً :

«ومن قوة رجائه أنّه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كلّ منزلٍ من منازله ، حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة ، عهد بتصييره في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقعاً لحلول منيّته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضّيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته ، وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك»[1] .

وقبل وفاته بأربعين سنة كان سيف الدولة الحمداني يفعل الأمر ذاته ، فقد روى صاحب وفيات الأعيان ما يلي :

«وكان قد جمع من نفضِ الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله لَبِنةً بقدر الكفّ ، وأوصى أن يوضع خدّه عليها في لحده ، فنفذت وصيته في ذلك»[2] .

إنهم هم الذين أكملوا بناء الحلم على أرض الواقع دولة ورسالة ، وكأن الشخصية الإسلامية قد وجدت مداها البعيد في

(١) المصدر نفسه ، ٤٠٩/١ ، وانظر **البيان المغرب** ، ٢٨٨/٢ .

(٢) ابن خلكان ، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ٤٠٥/٣ .

نشر رسالة الحق والعدل ، وقد ظلت تقاتل في مرحلة الصدام الأول مئة وعشرين سنة منذ انطلاقتهم الظافرة في الجزيرة يوم بدر ، وخارجها في مؤتة .

محمد بن حميد الطائي

وهذا قائد من زمان بني العباس في أوائل القرن الثالث للهجرة ، وسيكون عليه أن يتصدى زمن الخليفة المأمون ، للفئات المنحرفة عن الإسلام ، وأولها الخُرَّمية في صورة بابك وجموعه ، وقد نال شرف الشهادة ليقدم أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) رائعته فيه ، وقد صارت تفسيراً بالحدس والرؤية لحال الفتية الاستشهاديين .. القصيدة التي قال عنها أبو دلف العجلي لأبي تمام ، « وددت والله أنها لك في» ، وبلغ من وفاء نهشل ابن الشهيد الطائي أن بنى على ضريح أبي تمام قبة على باب الميداني في الموصل تقديرا لقصيدته تلك .. وكان استشهاد الطائي سنة ٢١٤ هـ .

إنها ، كما يقول الدكتور زكي المحاسني : **قصيدة الجندي المجهول** الذي قتل مجاهدا في سهوب خراسان .. يتنازع شرفها ألوف من الأبطال الشهداء[1] .

---

(١) زكي المحاسني ، **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة** ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ ، ص ١٧٥ .

لقد صمد محمد في حرب جبارة ، ولقي وجه ربه شهيداً مدافعاً عن الإسلام بعد أن تكسر سيفه في يده :

فتىً ماتَ بينَ الطَعنِ والضَّربِ مْيتةً
تقومُ مقامَ النصرِ إنْ فاتَهُ النَّصْرُ
وقْد كانَ فوْتُ الموتِ سَهْلاً فردَّهُ
إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
وَنْفسٌ تعافُ العَارَ حتَّى كأنَّهُ
هو الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ أو دُوْنَه الكُفْرُ
فأثْبتَ في مستنقَع الموت رِجْلَهُ
وقالَ لها : من تَحْتِ أخْمَصِكِ الحَشْرُ
تردَّى ثِيابَ المَوْت حُمْراً فما دَجى
لها الليلُ إلاّ وهيَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ
.. مضَى طَاهِرَ الأثْوابِ لمْ تَبْقَ رَوضَةٌ
غداةَ ثَوى إلا اشْتهتْ أنَّها قَبْرُ[1]

---

(١) انظر القصيدة كاملة في : أبو تمام ، حبيب بن أوس ، **شرح ديوان أبي تمام** ، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا حاوي ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٦٧٠-٦٧٣ .

أسد بن الفرات

في المرحلة نفسها يتقدم من تونس عالم مجاهد هو أسد ابن الفرات (مولى بني سليم ، قاضي القيروان ، وأحد كبار الفاتحين في زمانه) ، يتقدم بجيش إسلامي وأسطول كبير لفتح جزيرة صقلية ، وجيشه من عشرة آلاف مقاتل ، فكتب الله لهم النصر ، ثم مات من جراحات أصابته وهو محاصر «سراقوسه» براً وبحرا ، وعمره إحدى وثمانون سنة ٢١٣هـ ، وقد ذكر أنه قاد معركة ضد العدو ، بيده اللواء ، وهو يقرأ سورة ياسين ، وقد سال دمه على قناة اللواء وعلى ذراعه[١] .

وقصة أسد بن الفرات نموذج للعالم الفذ الذي يضع رؤيته للأمة في مقدمة عطائه ، فهو مولى بن سليم من نيسابور ، وحمله أبوه المقاتل في جيش محمد بن الأشعث الخزاعي إلى القيروان ، وهو ابن سنتين ، ثم رحل إلى تونس فسمع الموطأ من علي بن زياد ، وما لبث أن خرج إلى المشرق سنة ١٧٢هـ قاصداً مالك بن أنس في المدينة المنورة ، فسمع منه الموطأ ، وواظب على دروسه ، ثم توجه إلى العراق حيث لقي علماءها وخصه محمد بن الحسن

---

(١) ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٧ ، ٣٣٣/٦-٣٣٦ ، وخير الدين الزركلي ، **الأعلام** ، دار العلم للملايين ، ط١٠ ، بيروت ١٩٩٢ ، ٢٩٨/١ .

الشيباني برعايته ، وقدّمه في مجلسه العلمي ، وأسعفه في النفقة . ثم انتقل إلى مصر ليلزم مجالس عبدالرحمن بن القاسم وأشهب بن عبدالعزيز وغيرهما من العلماء ، ولزم ابن القاسم وجمع أجوبته في «الأسدية» عمّا سأله من فصول الفقه ، وسماها المدوّنة الأسدية . ثم عاد إلى القيروان سنة ١٨١هـ ، فانتشرت إمامته وولاّه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قضاء أفريقيا سنة ٢٠٣هـ ، وظل في موقعه حتى خرج إلى غزو صقلية . وعندما تقرر غزو صقلية سارع أسد إلى الخروج ، لكن زيادة الله كان يتغافل عنه ، فقال أسد :

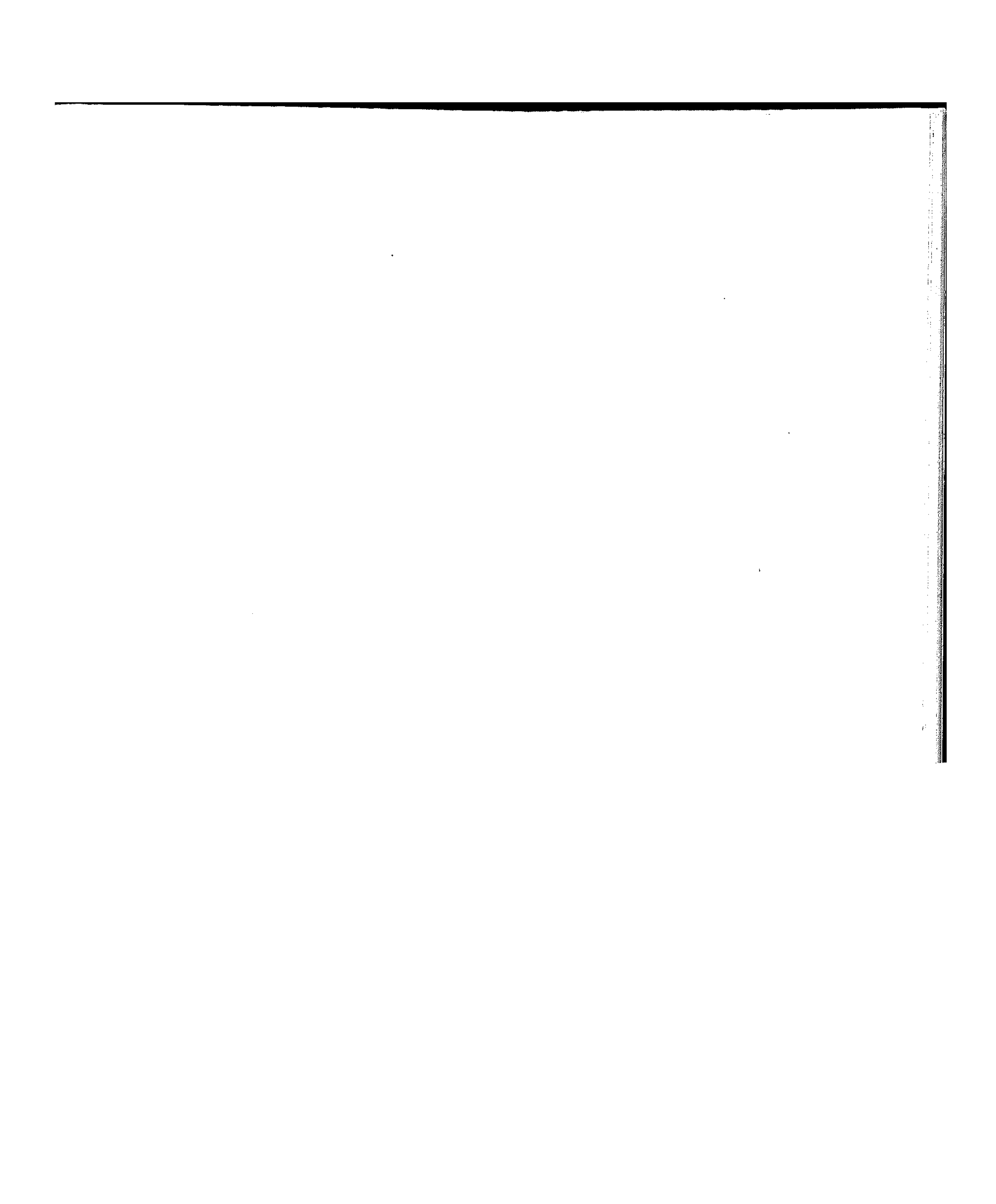
«وجدوني رخيصاً فلم يقبلوني ، وقد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية ، فما أحوجهم إلى من يجريها بالكتاب والسنّة»(١) .

وحين رأى زيادة الله إصرار الفقيه العالم على الخروج جندياً أمّره على الجيش ، وجعله قاضياً وأميراً ، فخرج في جيش من عشرة آلاف مقاتل ، منهم ألف فارس ، حملتهم مئة سفينة . وأمر زيادة الله بوداع حاشد ، ثم تحرك الجيش حيث فتح في طريقه جزيرة قوصرة ، ثم رسا على شواطئ صقلية ، ودارت المعركة الفاصلة وجيش الصقليين يفوق جيش المسلمين بأضعاف عدده ،

---

(١) محمود شيت خطاب ، «الفقيه القائد أسد بن الفرات» ، مجلة العربي ، ١٠٤ ، تموز ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٧ .

وتقدم القائد يحمل اللواء بيد والسيف بيده الأخرى ، وهو يدعو الله ، وتم النصر للجيش الإسلامي ، ثم توالت معاركه ليستكمل الفتح في وجه نجدات بيزنطة لأهل الجزيرة . . وتواصل القتال ، ولقي أسد وجه ربه شهيداً من جراحات شديدة أصابته وهو محاصر لسراقوسه ، فدفن في الموضع نفسه كما كان الأمر مع أبي أيوب الأنصاري قبله حول القسطنطينة . وتولى القيادة بعده محمد بن أبي الجواري ، وقد اشتد ضغط السفن البيزنطية على جيشه ومنعته من الانسحاب إلى إفريقيا ، فأمر بحرق السفن . ثم وصل أسطول أندلسي لمعاونته سنة ٢١٤هـ فواصل تثبيت أركان الحكم الإسلامي في صقلية ليستمر أكثر من قرنين من الزمان (إلى سنة ٤٦٤هـ) .



زمن الفتح الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩)

صدق الله العظيم

(آل عمران)

ملاذكرد

هذه معركة مشهورة تمتد فيها صورة الفتح الإسلامي . وفي حوادث سنة ٤٦٣هـ أن أرمانوس ملك الروم خرج في مئتي ألف من طوائف مملكته قاصداً بلاد الإسلام ، فوصل إلى ملاذكرد من أعمال خِلاَط ، فبلغ الخبرُ السلطان السلجوقي ألب ارسلان وهو بمدينة خوَيّ من أذربيجان عائداً من حلب ، ولم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو ، ومعه خمسة عشر ألف فارس فقط ، فأعلن فيهم : «إنني أقاتل محتسباً صابراً ، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى ، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملشكاه وليّ عهدي»(١) .

وقد نجح في الصدام الأول حين هزمت مقدمته طلائع جيش الروم ، وقد سعى لطلب الهدنة لكن ملك الروم رفض ، فقال له الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي : «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره ، وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة ، بعد الزوال ، في الساعة التي تكون الخطباء

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦ ، ١٠/٦٥-٦٧ . والذهبي ، كتاب دول الإسلام ، ١/٢٧٢-٢٧٣ ، وفتحي أسعد نعجة ، شخصيات إسلامية ؛ علماء وقادة ، دار البيارق ، عمان ١٩٩٩ ، ص ٣٢-٣٧ .

على المنابر ، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاء مقرون بالإجابة»[1] .

ذاك هو القائد ألب أرسلان وقد صلى بالناس ، ثم دعا وبكى ، وقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف ، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى ، ثم ألقى القوس والنشاب ، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط ، وقال : إن قتلت فهذا كفني . ثم زحف نحو صفوف الأعداء فلما قاربهم ترجّل وعفّر وجهه على الترب ، وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل ، وحملت العساكر معه .. وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم ، وأسر ملكهم ، وفرض شروطه ومنها أن يُطلق سراح كل أسير في بلاد الروم[2] .

رجال حول القدس

تلك هي القدس وحلم الشهيد نور الدين قد صار حقيقة ، وصلاح الدين يطبق بجيشه على الأعداء ، وينقيها من دنسهم ، وذاك هو الفارس الأمير إبراهيم بن الحسين المهراني يلقى وجه ربه

---

(١) ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، ٦٦/١٠ .

(٢) المصدر نفسه ٦٦/٦٧ ، وانظر : محمد فريد عبدالقادر ، **معارك فاصلة في تاريخ الإسلام** ، دار المستقبل العربي ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ١٧٤-١٨٣ .

شهيداً على عسقلان ، وجيش الإسلام مندفع نحو القدس[1] ، وذاك هو الشهيد الأمير عز الدين عيسى بن مالك الذي كان في جيش الإسلام حول القدس وقد اختار المؤرخون الإشارة إليه لأمر يبدو في وصفهم لشجاعته :

«وممن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزاً الأمير عزالدين عيسى بن مالك ، فإنه حاز لشهادته في المحشر المفخر ، وأكثر رود الموت إلى أن ورد الكوثر ، وكان كل يوم يفرس فوارس ، ويلقى ببشر وجهه المنون العوابس . . فاغتم المسلمون من صرعته ، وهان عليهم إتلاف المهج بعد تلاف مهجته ، فركبوا أكتاف الرهج حتى وصلوا إلى الخندق فحرقوه ، وبدّدوا جمعهم وفرّقوه ، والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه وأحرقوه ، وصدقوا وعد الله في القتال لأعدائه وصدقوه»[2] .

---

(١) العماد الأصفهاني ، **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١١٣ ، وفي الكتاب وصف متميز لفتح القدس . وانظر ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب** ، تحقيق جمال الدين الشيّال ، جـ٢ : عصر صلاح الدين ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢١١-٢١٧ .

(١) أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد المقدسي ، **كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين** ، دار الجيل ، بيروت ، ٩٤/٢ .

في معركة عكا التالية على فتح القدس ، وفي ظروفها المعقدة ، يصف المؤرخون لحظة نادرة من الصبر الإنساني العظيم ، يقول القاضي ابن شداد واصفا دعوة صلاح الدين سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه ، وتلاحق العساكر الإسلامية للمشاركة في المعركة ، بينما مدد الإفرنج من البحر لا ينقطع ، والسلطان يطلب الرأي من قادته في خططهم القادمة ، فيكون بينها رأي يقول :

« ..أن يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها .»[1]

عكا : مدينة استشهادية

وقد صمدت عكا والمنايا حولها حواكم ، والحصار شديد حتى بلغ الأمر بجهات فيها أن مالت إلى طلب الأمان إن لم يسعفهم المسلمون ، فهم ، أهل البلد- قد أنهكهم التعب والسهر ، والسور يتخلخل تحت ضرب المنجنيقات ، والتناوب بينهم على القتال

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ، ١٤٦/٢ .

متواصل ، وصلاح الدين «يطوف بين الأطلاب ، وينادي بنفسه : يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدمع ، وكلّما نظر إلى عكا ، وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف والحث على القتال»(١) . .

آنذاك وصلته رسائل الناس في عكا بأنهم يدخلون حالة العجز والإنهاك وقد تدفعهم إلى طلب الأمان ، فكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم . . لكن تلك اللحظة عبرت ، وظلّ القتال مستمراً في تلك الأيام الصعبة من سنة ٥٨٧هـ ، واستعاد الناس في المدينة روح التحدي فبعثوا الرسالة الآتية إلى صلاح الدين :

«إنّا قد تبايعنا على الموت ، ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلّم هذا البلد ونحن أحياء ، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو ، ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإيّاكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له ، فأما نحن ، فقد فات أمرنا»(٢) .

وإذا كانت معركة عكا قد انتهت على غير ما تمنّى المسلمون ، وظلّ النضال في سبيل الله متواصلاً مئة سنة حتى تحررّت فإن

---

(١) ابن شدّاد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٩-١٧٠ .

رسالة أهلها ظلت خالدة ، وقد وردت منهم رسالة ثانية وأخيرة تقول :

«يا مولانا : لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذي أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا ، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا وبالله المستعان»[1] .

وفي سياق صبر عكا العظيم وبطولاتها تحضر حكاية الشهيد عيسى العوام ، الفتى « الواصل بهذه الكتب»[2] من أهل عكا إلى السلطان ، كما يروي بهاء الدين بن شداد في النوادر السلطانية .

وفي النوادر أيضاً قصة هذا البطل بشيء من التفصيل :

«ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عوّاماً مسلماً كان يقال له عيسى ، وكان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً ، على غرّة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام في البحر ، فجرى عليه من أهلكه ، وأبطأ خبره عنّا ، وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طيرٌ عرّفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناس هلاكه ، ولمّا كان بعد

---

(١) انظر الرسالة وسابقتها : محمد ماهر حمادة ، **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ؛ دراسة ونصوص** ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ص ٢١٩ .

(٢) **النوادر السلطانية** ، ص ١٧٠ .

أيام ، بينما الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا بالبحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي من أدّى الأمانة في حالة حياته ، وقد أدّاها بعد وفاته إلاّ هذا الرجل . .»(١) .

وينقل أبو شامة في الروضتين عن العماد إشارته إلى أن العوام «كانت له لا شك منزلة عند الله ، فلم يُرده أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة ، فوجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها ، وبرّأه الله ممّا قالوا ، فذهب حق اليقين من الظنون بباطلها»(٢) .

ويكون على عكا أن تنتظر حتى سنة ٦٩٠هـ إذ يتقدم إليها الملك الأشرف خليل ، ويحاصرها برّاً وبحراً ، وينصب عليها المناجيق والأبراج الخشب ، ويقاتل من بها مدّة أربعين يوماً حتى فتحها عنوة(٣) .

ويصف الحافظ الذهبي في كتابه «دول الإسلام» ، حوادث

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ١٦٢/٢ .

(٣) انظر كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة لمؤلف من القرن الثامن ومنسوب لابن الفوطي ، تحقيق د . بشارعواد معروف ، ود . عماد عبدالسلام رؤوف ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٧ ، ص ٥٠٦-٥١٢ .

سنة ٦٩٠هـ ، وخروج السلطان ومنازلته عكا في ربيع الآخر بجيوش الإسلام ، وبأنم لا يحصون أضعاف الجند ، ولعلّ وصفه المهم لتحرير عكا يستحق استعادته هنا ؛ خاصة أن تزامنا غريباً قد وقع بين تاريخ أخذ الصليبين لعكا من صلاح الدين ، وتاريخ فتحها زمن الأشرف خليل ، وبين الواقعتين مدّة تزيد على قرن من الزمان ، فقد أخذها الصليبيون يوم الجمعة في الثالثة من سابع عشر جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧ ، وحرّرها الأشرف خليل في يوم الجمعة في الثالثة من سابع عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٠ :

«فزحف الجيش عليها سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، فانقلبت الأرض لضرب الكؤسات ، فحين لاصق المسلمون السّور هربت الفرنج إلى البحر ، وطلعت الرايات المنصورة ونُكّست الصلبان ، وبذل السيف مع طلوع الشمس فلم يمض ثلاث ساعات إلاّ وقد خرج الناس بالسَّبْي ، وعصت الدّاوية والاسبتار والأرمن في أَربعة أبرجة شواهق في وسط عكا ، ثم أَمنهم السلطان من الغد ، وطلعت الأَجناد فتعرضوا للحريم ، فغلقت الفرنج الأَبواب ورموا على السلطان ، وقتلوا الأَجناد : منهم الأميرآقبغا ، ثم عاد الحصار . وبعد يومين أَمنهم السلطان فلم يف لهم ، فقتلَ منهم نحو الألفين وأُسِر مثلهم . فلما رأى الحالَ من بقي من الأبرجة عَصَوْا وتحالفوا على الموت ، وقاتلوا وتخطفوا خمسة من المسلمين فرموهم من أعلى البرج ، فسلِم واحد ، ثم نقب أساس هذا البرج وغلق من جهاته ، ثم نزلوا بالأمان . ثم من الغد سقط على جماعة من الناس فهلكوا ، ثم ضرب رقاب أهله

مكافأةً لفعلهم من مائة سنة حين أَخذوا عَكًّا من السلطان صلاح الدين بعد محاصرة سنة وعشرة أشهر ، فانهزم أمير المسلمين ثم غدروا بهم ، وأَعجب من ذلك أَن أَخذهم كان لعكا في يوم جمعة في الثالثة من سابع عشر الشهر . لكنه شهر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة»[١] .

وتقوم أسباب ، على الرغم من تباعد الزمن ، بين معارك سابقة وأخرى لاحقة ، وقد تنبّه العماد الأصفهاني إلى مثل هذا ، فربط بين مؤتة وعكا التي استشهد على أبوابها سبعة من الأمراء في عام واحد (٥٨٦هـ) ، وجاء الربط من خلال شهيد يمت بالنّسب إلى شهيد مؤتة عبدالله بن رواحة ، يقول :

«وأمر السلطان بمواراة الشهداء ، ومن جملتهم الفقيه (أبو علي بن رواحة)- وكان غزير الفضل قد أكمل الرجاحة والسّجاحة . وهو شاعر مفلق ، وفقيه محقق ، من ولد (عبدالله بن رواحة الصحابي الأنصاري)- في الشهادة والشعر معرق ، فطرفه الأعلى يوم مؤتة مع جعفر الطيّار ، وطرفه الأقرب يوم عكّاء في لقاء الكفّار»[٢] .

---

(١) الذهبي ، كتاب دول الإسلام ، ٢/ ١٩٠ ؛ أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل ، المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .د .ت . ٤/٢٤-٢٥ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٣١٨ .

إن مصادر حروب الإسلام ضد الصليبيين حافلة بالمعارك الخالدة الظافرة لجيوش الإسلام وقادته ، وإذا كانت هذه المصادر تكتفي بالإشارة إلى استشهاد هذا القائد أو ذاك فإنها أحيانا تبدي ملاحظات تفصيلية عنهم ، ومنها :

- في سنة ٦٤٧ هـ ، صد المسلمون طلائع حملة لويس التاسع (الحملة الصليبية التاسعة) على مصر ، فاستشهد في ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام .. واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزيري[(١)] .

- وعندما هاجم الافرنج المنصورة فجأة ، كان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب الأمير دهشا غير مستعد ولا متحفظ ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه رحمه الله»[(٢)] .

ويقدم أسامة بن منقذ صورة رائعة للعلماء الذين يتقدمون إلى الجهاد بالسيف في اللحظات التاريخية الحاسمة من نزال الأمة لطرد الصليبين ، فقد قال :

---

(١) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .

«ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم ، يقاتلون للجنّة لا لرغبة ولا لسمعة ؛ ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي لعنه الله ، لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج ، وقصد دمشق ، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم ، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبدالرحمن الحلحولي رحمهما الله . وكانا من خيار المسلمين ، فلمّا قاربوهم قال الفقيه لعبدالرحمن . ما هؤلاء؟ الروم؟ قال : بلى . قال : فإلى متى نحن وقوف؟ قال : سِرْ على اسم الله تعالى . فتقدما وقاتلا حتى قتلا ، رحمهما الله ، في مكان واحد»[1] .

ومن الأخبار التي يرويها أسامة خبر عن سيدة مسلمة انحرف زوجها وهو علي [عبد] ابن أبي الرّيداء إلى خدمة توفيل الصليبي صاحب كفر طاب ، فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين ويبالغ في أذاهم وسفك دمهم ؛ وله امرأة معه بكفر طاب تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فدبّرت حضور أخيها وأخفته ثم اجتمعت معه على زوجها الخائن فقتلاه ، وغادرا سراً إلى شيزر حيث قالت : «غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر»[2] .

---

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، ص ٩٤-٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

وفي سياق النضال ضد الغزو المغولي تبرز بطولات واستشهاديون ، وتشكل عين جالوت ذروة التصدّي للأعداء ، وفيها يقف السلطان قطز والظاهر بيبرس في صورة القيادة الإسلامية الكبيرة ، ونرى قطز وهو يخوض في جمر المعركة بندائه العظيم : «واإسلاماه» ، وحين يقتل جواده في المعركة ، يعتذر عن عدم قبول جواد قدّمه له أحد فرسانه قائلاً له : «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك» ، ويقاتل راجلاً حتى لامه بعد المعركة بعض من معه لأنه لو رآه الأعداء لقتلوه ، وفي ذلك هلاك للإسلام ، فيطلق قولته المشهورة «أما أنّا فكنت أروح إلى الجنة ، وأمّا الإسلام فله ربٌّ لا يضيّعه ، قد قتل فلان ، وفلان ، وفلان ، حتى عدّ خلقاً من الملوك»[1] .

---

(١) محمد موسى أبو شرار ، **من مواقف القدوة في المحن** ، ط١ ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٣ ، ص ٨٦ ، وانظر فايد حمّاد ومحمد عاشور ، **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي** ، ط١ ، جرّوس برس ، طرابلس (لبنان) ١٩٩٥ ، ص ١١١-١١٤ . وانظر في المرجع نفسه خبر استشهاد الأمير عز الدين معن ، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني في معركة تحرير طرابلس (لبنان) سنة ٦٨٨ هـ . ص ١٩٢ .

الإمام الشهيد ابن النحّاس

وتكشف صفحات التراث الاستشهادي للأمة عن حالات نادرة وعظيمة ، منها تلك التي كانت في معركة الأمة ضد الصليبيين الذين ظلوا يهددون مصر ، وأعني صورة العالم الكبير أحمد بن إبراهيم بن النحّاس الدمشقي الدمياطي ، فقد امتدّ نضاله بين دمشق ودمياط حين كانت الأولى تصدّ الغزو المغولي ، بينما ترد الثانية بقايا الغزو الصليبي المتمثل في الغزاة «الجنوية» ، نسبة إلى جنوا في إيطاليا ، وقد شهد حوادث دمشق وهو المعلم العالم بالحديث والفقه ، المقاوم للسكون والخوف ، وحينما اجتاح تيمورلنك معظم بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ وحلّ بها ما هو معروف من القتل والخراب ، خرج مع كثيرين من أهل دمشق إلى مصر ، حيث أقام في المنزلة ، ثم تحوّل إلى دمياط في فترة كانت مصر فيها تتصدى للغزو الصليبي ، فألف كتابه المتميز في موضوع الجهاد وأحكامه وفضائله : «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، ومثير الغرام إلى دار السلام» ٨١٢هـ أي قبل استشهاده بعامين ، وقاد أهل دمياط ومن حولها لمواجهة الصليبيين وصدّ غاراتهم حتى لقي وجه ربّه شهيداً سنة ٨١٤هـ .

إن في استشهاد هذا العالم صورة فذّة للأمة الواحدة في غاياتها ، وحروبها ، وجهادها ، ووحدة ثقافتها ، وروح أبنائها ، وقد تبعه بعد ما يقرب من أربعة قرون عالم أزهري حلبي هو سليمان الحلبي ليصد

الغزو نفسه ، أي الفرنسي ، حين قتل قائد الجيوش الفرنساوية الجنرال كليبر ، ١٨٠٠م ثم لقي وجه ربّه شهيداً عظيماً[١] .

وينقل د . الخالدي أقوال المؤرخين المسلمين لسيرة الإمام الدمياطي ، وكيف قاد المقاومة عندما هاجم الصليبيون قرية «الطينة» قرب دمياط ، وينقل عن ابن حجر العسقلاني في «إنباء الغمر بأبناء العمر» صورة لخروج الناس لنجدة أهل الطينة ، وكبيرهم محيي الدين النحاس الذي كان مُلازماً للجهاد بثغر دمياط ، وقاتل مقبلاً غير مدبر حتى نال الشهادة[٢] .

إنها صورة النضال المتواصل في سبيل الله ودفاعاً عن حمى الأمة ، صورة تتماهى مع تلك التي تضيء صفحات هذا التاريخ بنجوم الشهادة من ذي الجناحين إلى الغافقي ، ومن ابن النحاس المعلم الثائر إلى سليمان الحلبي . وتشير مؤلفات ابن النحاس إلى هذا الالتزام الكبير بالأمة وتعليم أهلها ، ومن كتبه المنشورة : بيان المغنم في الورد الأعظم ، وتنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين ، وتحذير السالكين من أفعال الهالكين . وتكشف مقدمته لمشارع الأشواق عن إصراره على تقديم كتاب في المقاومة ، وعن حسّ

---

(١) انظر مقدمة د . صلاح الخالدي لكتاب ابن النحاس الذي هذّبه وهو : كتاب **مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد** ، ص ١٣-١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

عميق بالشهادة ، وتحريض على الجهاد في سبيل الله فيه رؤية حاسمة ، ولغة أخّاذة ، وروحٌ فيها من الفروسية نبلٌ وصبرٌ وإقدام . يقول :

> «ومما يجب اعتقاده أن الأجل محتوم ، وأنّ الرزق مقسوم وأن ما أخطأ لا يصيب ، وأن سهم المنيّة لكل أحد مصيب ، وأن كلّ نفس ذائقة الموت ، وأنّ ما قدّر أزلاً لا يخشى فيه الفوت ، وأن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأن الريَّ الأعظم في شرب كؤوس الحتوف ، وأن من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار . . وأن الشهداء عند الله من الأحياء ، وأن أرواحهم في جوف طير خُضْرٍ تتبوأ من الجنة حيث تشاء . .»(١)

ويتواصل تدفق النص المضمّخ بروح الشهادة وكأنه يرسم لروحه دربها نحو الجنة ، ويكشف عن ثقافة إسلامية عميقة في موضوع مواجهة الخطر الذي يتهدد الأمة ، ويجعل الجهاد قاعدة هذه المواجهة حين ينفر المؤمنون في سبيل الله «خفافاً وثقالاً ويتوجهون لجهاد أعداء الله ركباناً ورجالاً» ، وحين يجرون «الخميس العرمرم القمقام ، إلى أولياء إبليس الطّغام اللئام» .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

وتصعد نبرته الخطابية في مقدمته إلى ذرى بلاغيّة عالية وهو يدعو إلى :

« ..أن ننشر أعلام الإسلام على جوار كالأعلام ، وأن نخترق مهامه الأقدام على نُجب بلا أقدام ، وأن نجري في البرّ بحراً بالعجاج عجاج ، وبالسّوابح الصّواهل متلاطم الأمواج ، إلى أن تغصّ سيول الخيول الوهاد والذّرى ، وتُرَضَّ بنصول الفحول البلاد والقرى ، وأن يبيت كلّ منا والسيف العضبُ له ضجيعاً ، ويصبح ومعترك الحرب الضّروس له ربيعاً ، وحرّ الوطيس له غيثاً مريعاً ، وأن يلبي داعي الموت سامعاً له ومطيعاً ، ويؤم الصوت وإن أمسى مجدّلاً صريعا . .»[1]

ويضع ابن النحاس رؤيته موضع التنفيذ ، فتربح تجارته حيث استعذب المنية ، واندفع إلى مورد الشهادة الذي لن يظمأ بعده مقاتلاً في سبيل الله ، ويقدم نموذجه للعالم والمثقف الذي يجهر بالحق ويصدّ عن المسلمين أذى الاستعمار وقهر الاستبداد ، ويصير نموذجاً لقادمين بعده بزمان ، ومثله سينادي عبدالرحيم محمود «سأحمل روحي على راحتي» ، ويندفع بها سنة ١٩٤٨ حتى يلقى وجه ربه شهيداً وهو يصدّ الغزاة عن أرض فلسطين . . إنها صورة الالتزام العظيم بالأمة الذي لا يتقدم عليه التزام .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

موسى بن أبي الغسان : زمن غرناطة الأخير

ومن النجوم الزهر بين القادة الاستشهاديين موسى بن أبي الغسان ، فارس غرناطة ، وهو آخر الدرر في عقد فريد نظمه المدافعون عن الأندلس الإسلامية منذ أول الفتح زمن السمح بن مالك والغافقي . . وفي هذا العقد :

- الوالي عقبة بن الحجاج السلولي في بلاط الشهداء (الثانية) سنة ١٢١هـ.[١]
- والقائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، قائد جيش عبدالرحمن الناصر ،استشهد مقاتلاً سنة ٣٠٥هـ ، « وقيل إنه كان قد اعتقد مذهبا في طلب الشهادة»[٢] .
- والخليفة الموحدي يوسف بن عبدالمؤمن الذي استشهد أثناء غزو البرتغال سنة ٥٨٠هـ[٣] .
- والحافظ أبو الربيع الكلاعي شهيد موقعة أنيشة سنة ٦٣٤هـ الذي تقدّم الصفوف زحفاً إلى الكفار ، مقبلاً على العدو ينادي بالمنهزمين : أعن الجنة تفرّون؟ حتى قتل صابراً

---

(١) البيان المغرب ، ٢/٢٩-٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧١-١٧٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٤/٣٧٩ .

محتسباً[1] .

- وأبو مالك بن أبي الحسن المريني قائد الجيش المغربي ، وقد استشهد وهو يقود الجيش ضد الإسبان عند جبل طارق سنة ٧٤٠هـ .[2]
- والأمير الشيخ علي العطار قائد جيش غرناطة ، وقد استشهد في اللسانة عن عمر يزيد على ثمانين عاماً . . وكان من أشجع القادة [3] .

أما موسى فإن لاستشهاده حكاية تبعث على الأسى والفخر معاً ، فذاك هو يراقب مفاوضات تسليم غرناطة ، والمدينة محاصرة ، وحكّامها يقبلون خدعة الإسبان بالشروط الكثيرة للمعاهدة . . إنهم يجمعون على رأي ، لكن له رأيا آخر . . إن مدن الإسلام تموت واقفة ولا تستسلم ، والقادة لا يغيرون أرواحهم من حالة الحرب إلى حالة السلم كما يتغير أهل السياسة ، لذلك سيعلن ، وهو القائد الشجاع ، رفضه لما يجري ، ولأنه وحده ، سيختار طريقاً صعباً إلا على الذين استحكم الإيمان والحزم في

---

(١) **المصدر نفسه** ، ٤٧٣/٤ .

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، **تاريخ ابن خلدون** ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، المجلد ٧ ، القسم ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٣) **آخر أخبار غرناطة (نبذة العصر في دولة بني نصر)** ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار حسّان ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

نفوسهم . وعندما كان أبو عبدالله الصغير يتراجع عن المقاومة ، وينوي قبول عروض الإسبان بتسليم غرناطة ، نهض موسى ، وهو من أمرا الجيش ، ليعلن أن صفوة قوات غرناطة ما تزال موجودة وتزيد على عشرين ألف فارس ، يؤازرها الناس من أهل غرناطة ، ويشكلون ما يقرب من أربعمائة ألف مقاتل ، عدا عن المتطوعين من المسلمين من خارج غرناطة والأندلس ، فتسلم موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد بن زيد ، وبدأ استعداد القادة ، وهم كثر ، للصمود ، وأسعفهم الشعب ، فصمدوا للحصار الشديد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا في ظروف معقدة وضغط قشتالي صليبي ، وعندما ينعقد مجلس عام آخر عند أبي عبدالله للبحث ثانية في تسليم المدينة يحني الجميع رؤوسهم بالموافقة إلا موسى الذي أعلن أن دعاة الاستسلام إنما يريدون أن يبقي العدو على أرواحهم وأموالهم التي غنموها بالباطل ، وهم بذلك يوافقون على محو الأمة المحمدية . . ثم يحذرهم من سوء خططهم ، ويسرد عليهم ما فعل الإسبان بالمسلمين في المدن التي احتلوها منهم ، ويحذرهم من البلاء الأعظم إن قبلوا بالاستسلام والذي سيصيب غرناطة وأهلها وهم ثلاثة ملايين .

وصمت القوم كلهم ، فأدرك أنهم يخالفون رأيه ويختارون سلامتهم وأموالهم ، . . ووجد نفسه ذات صباح وحكام الحمراء يستعدون للتوقيع على المعاهدة عند التسليم ، فنهض مغضبا وألقى خطابا يفيض حمية وحماسة رفض فيه المعاهدة ، وطالب

بالمدد من مسلمي أفريقيا وختمه بقوله :

«أما أنا فإني سأختار السبيل الذي يخلصني من هذا الذل والعار ، ولكني أشفق على أمة محمد العظيمة من أن يقال إنها خشيت الموت دفاعا عن غرناطة» [1] .

ثم غادر المجلس ، وجاز قصر الحمراء مجللا بالصمت الغاضب ، وذهب إلى داره وحمل سلاحه ، وامتطى صهوة جواده ، وغادر المدينة من باب (الوبر) ولم يره إنسان بعد ذلك . . هذا في رواية ، وفي نصوص أخرى أنه التقى سرية من فرسان النصارى بجوار نهر شنيل ، وعندما طلبوا منه أن يعرف بنفسه لم يجبهم ، فأرادوا القبض عليه ، فوثب إلى وسطهم وأمعن فيهم طعناً وقتلاً حتى قتل معظمهم ، لكنه أصيب بجرح بالغ سقط على أثره على الأرض ، فركع على ركبتيه ، واستل سلاحه وأخذ يدافع عن نفسه ، ويتقي ضربات السيوف ، فلما خارت قواه آثر أن يلقي بنفسه في النهر حتى لا يقع أسيراً في أيدي العدو . . وغاص إلى الأعماق يسعفه ثقل سلاحه ، ولم يسمع له ذكر من ذلك التاريخ . . وقد أسر الأعداء جواد الفارس الذي قاوم فرقة منهم وحده . . فكيف لو قاومت غرناطة كلها . . !!

---

(١) ضيا باشا / **الأندلس الذاهبة** ، وزارة الثقافة والإعلام ، عمّان ، ١٩٨٩ ، تعريب عبدالرحمن ارشيدات ٣٣٣/٣ .

إنها شهادة تليق بالإسلام وبغرناطة ، وإنه نموذج يطرح علينا أسئلة قد لا تجد إجابات عنها في زماننا العجيب هذا الذي يشغل فيه نفر من أهل الأمة بالبحث هل شهداؤنا الشباب استشهاديون أم انتحاريون !! . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[١] .

عروّج باشا :

ويطل الغرب غازياً بعد سقوط غرناطة ، وتتوالى اندفاعاته الاستعمارية على أرض الإسلام ، وتظل روح المقاومة حاضرة تجد عزاءها في الدولة العثمانية التي تندفع جيوشها في أوروبا ، ويسجّل القائد العثماني عرّوج باشا مواقف رائعة في صد الغزاة الإسبان الذين لم تتوقف اندفاعاتهم الطامعة نحو الجزائر طيلة ثلاثماية سنة بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ .

لسنا بصدد التأريخ لوقائع هذه المرحلة ، لكنني أشير إلى موقف استشهادي لهذا القائد الكبير ، شقيق القائد العثماني الآخر ذي الشهرة العظيمة خير الدين في قيادة الأسطول

(١) انظر أيضاً محمد عبدالله عنان ، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط٢ ، مطبعة مصر ، القاهرة ص ٢٤٠-٢٤٢ حيث يقدم روايات قشتالية بعضها ذات مصادر عربية غير معروفة لموقف موسى تقترب من الأسطورة .

العثماني في البحر الأبيض المتوسط ومحاولته لتأسيس سلطة قوية في الجزائر ، والمتوفى سنة ١٥٤٧م .

كانت معركة عرّوج الأخيرة سنة ١٥١٨ ، وهو يردّ مع مقاتليه الأتراك والجزائريين غزو الإسبان لمدينة تلمسان ، وقد عزّت عليه النجدات التي انتظرها من المغرب ، لذلك تحصّن في قلعة «المشور» ، ولم يبق معه إلاّ خمسماية رجل من الأتراك ، عزموا على الموت دفاعاً عن قلعتهم ، وقد تعرضوا لخدعة حين تقدمت جماعات لتؤدي صلاة العيد في مسجد «المشور» ، ثم أشهرت السلاح واشتبكت معهم ، لكن عروج ورفاقه تمكنوا من هزيمتهم ، آنذاك قرّر عرّوج أنه لن يتمكن من الدفاع عن الأسوار والأبواب بالقوة الباقية معه ، فقرّر أن يشق طريقه بالقوة مخترقاً صفوف أعدائه إلى أن يصل ساحل البحر حيث يلتقي بمدد من خير الدين يحمله أسطول الجزائر ، لكن الإسبان اقتفوا أثرهم ، ودارت معركة عنيفة وليس مع عروج سوى عشرة مقاتلين تحصنوا في «زاوية سيدي موسى» وقاتلوا حتى استشهدوا جميعهم ، ولم يبق إلا عرّوج في مواجهة قائد الفرقة الإسبانية ، «فاستمرا على المبارزة رأساً لرأس ، إلى أن اخترط كل منهما صاحبه بالسيف ، وخرّ عروج ، وخرّ خصمه ، يتخبطان في دمائهما . ساعتئذ تقدم الاسبانيون ، فاحتزوا رأس عرّوج . . وساروا بالرأس توّا نحو وهران ، ومن هناك سير به إلى إسبانيا ، حيث طاف القوم بها خلال أكبر مدنهم ، وذهبوا بعد ذلك إلى أوروبا ، حيث طيف بها كذلك

خلال أغلب المدن الأوروبية . التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم بربروس . أما ثيابه المزركشة التي تركها في تلمسان فقد أخذت إلى إسبانيا ، وطيف بها أغلب المدن ، ثم أودعت في معتكف القديس سان جيروم القرطبي»(١) .

وقد أشارت المصادر الغربية إلى هذا الشهيد ، ووصفت معركة استشهاده وكيف «دافع عن نفسه مثل الأسد» رغم أنه كان لا يستعمل إلاّ يداً واحدة ، وكانت خاتمته البطولية ، كما يرى بعضهم ، باعثة على الإعجاب بإقدامه وجرأته النادرة ، وإن كان بعضهم الآخر يراه قرصاناً مغامراً . . لكنه يظل في تاريخ أمته جندياً من جنود الإسلام جاهد في البرّ والبحر ضد أعداء دينه وبلاده(٢) .

الشهداء السبعة

وعلى الطرف الآخر من أرض الإسلام ، وبعد خمس سنوات فقط من استشهاد عرّوج باشا مدافعاً عن تلمسان ، كانت فئة

---

(١) أنظر أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢-١٧٩٢) ، وثائق ودراسات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٣-١٩٦ .

مؤمنة من علماء حضرموت تتصدى للغزاة البرتغاليين في اليمن ، وفي مدينة الشحر بالذات ، وقد استعاد حكايتهم العظيمة الباحث محمد عبدالقادر بامطرف بعد قرون من وقوعها .[1]

هاجم البرتغاليون مدينة الشحر سنة ١٥٢٣ ، ونزلوا في زوارقهم الصغيرة إلى الساحل مزودين بالبنادق مع ما يقارب أربعمائة مقاتل ، وأحضروا معهم معدات الحريق والبارود والنفط والسلالم ، فأضرموا النار في أماكن مختلفة من المدينة ، وباشروا بقتل أهلها ، فهرع المواطنون للدفاع عن مدينتهم ، واستماتوا في المعركة الشرسة ، ودبّت روح الفداء في الناس ، وفي ساحة واحدة من ساحات المدينة قتلوا سبعة وثلاثين برتغالياً وهندياً ، وخسروا ثمانين مقاتلاً من أبناء الشعب ، وكان أمير المدينة مطران ، وستة من صحبه العلماء على رأس المندفعين للدفاع عن المدينة ومسجدها الذي أضرم البرتغاليون النار فيه ؛ وتلك هي مصارع السبعة :

- الفقيه العلاّمة يعقوب الحريضي ، سقط قتيلاً في حارة القرية .
- الشيخ حسين العيدروس ، سقط قتيلاً في شارع السوق الرئيسي .
- الشيخ فضل بن رضوان بافضل ، سقط قتيلاً في ساحة السوق .

---

(١) انظر كتابه : **الشهداء السبعة** ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤ .

- الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بافضل ، سقط قتيلاً بالقرب من مدرسة والده .

وفي اليوم الثاني للمعركة :

- قتل الشيخ أحمد بن رضوان بافضل بالقرب من مسجد الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي ، وهو شقيق الشهيد فضل بن رضوان .

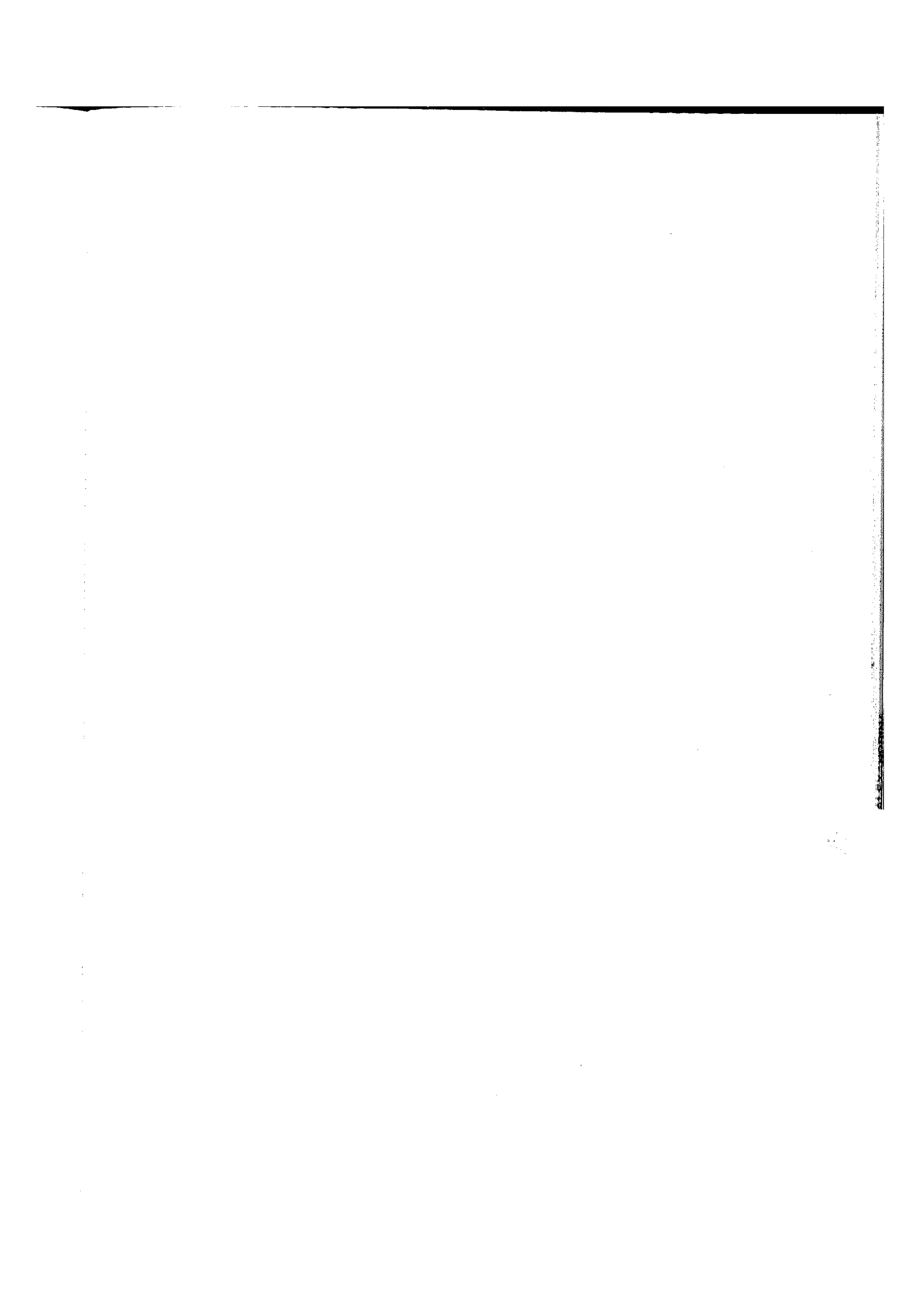
وفي اليوم الثالث :

- قتل الشيخ سالم باعوين بعد اشتباك اوقع فيه وجماعته أربعين قتيلاً جُلّهم من البرتغاليين .
- وقتل في اليوم نفسه الأمير مطران وهو يقود المقاومة ليصد الغزاة عن الديوان ، فخرّ في المكان الذي حفر فيه قبر الشهداء السبعة(١) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢-٧٥ .

صور من زمان قريب



بسم الله الرحمن الرحيم

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

صدق الله العظيم

(الأحزاب)

سليمان الحلبي : سلام على الدم الشهيد

هذا الفتى الأزهري قائد وعسكر وشهادة .. فهو قائد في الثالثة والعشرين ، وجيشه روحه ، وإعلامه لبعض ضباط الجيش العثماني أنه سيقتل قائد جيش الغزو الفرنسي لمصر الجنرال كليبر .. أما الشهادة فما تزال حاضرة في جسده الموزع بين القاهرة وبين متاحف باريس منذ استشهاده سنة ١٨٠٠ بعد أن نفذ ما وعد به ..

ولد سنة ١٧٧٧ ، في حلب ، تعلم ثلاث سنوات في الأزهر ، زار القدس وغزة وحج مرتين ، وقابل قواداً في الجيش العثماني فعاهدهم على قتل القائد الفرنسي والحاكم العام بعد رحيل نابليون عن مصر .. حمّله علماء غزة رسائل إلى بعض علماء الأزهر لمساعدته .. وصل القاهرة وأمضى واحداً وثلاثين يوماً يتربص بالجنرال حتى أطبق عليه بخنجره فقتله .. أعدمه الفرنسيون «صلبا على الخازوق بعد أن تحرق يده اليمنى ، ثم يترك طعما للعقبان» ونفذ الحكم يوم ١٨٠٠/٦/١٧ ، وعلقت إلى جانبه رؤوس ثلاثة من علماء الأزهر كان قد فاتحهم بغايته وحفظوا سره ..(١)

في متحف حديقة النباتات والحيوانات بباريس هيكله

(١) الأعلام ، ١٣٣/٣ .

العظمي ، وجمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس ، وخنجره في مدينة كاركاسون Carrcasson بفرنسا . .

يروي الجبرتي وهو ينشر محاضر التحقيق مع الحلبي والسادة العلماء ، وقرارات الإعدام الصادرة بحقهم أن الحلبي قال للمحققين جملة واحدة جوابا على سؤالهم عن سبب حضوره من غزة إلى القاهرة :

« لأجل أن أقتل صاري عسكر العام» (١)

وبعد ما يزيد على مئة وخمسين عاماً تستعيد أرض الكنانة خطوات سليمان الحلبي في فتى عربي قادم من سوريا على نهجه ، إنه البطل جول جمال ، الذي يقدم روحه في معركة الأمة ضد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، فقد ألقى بنفسه في غمار الموت في إطار عملية فدائية استشهادية دمرت سفن الأعداء في قناة السويس ، وأوقفت الملاحة فيها . . لقد شق عباب الماء بزورقه وهو يعرف أن جسده هو القنبلة ، وأن دمه علامة البطولة ، وذاك هو في أعماق اليم منارة ورمز وراية .

---

(١) انظر الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، ج٤ ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٧٣-٣٩٠ .

سليمان الجوسقي : المناضل الضرير

وفي أخبار مقاومة الغزو الفرنسي ، وفي إطار بطولات أهل مصر حكايات عظيمة للتصدي والانقضاض على الغزاة ، ومنها حكايات عن علماء الأزهر الذين خاضوا غمار الثورة ضدّ هذا الاستعمار الجديد ، وبينهم الشيخ الشاب الذي شهده الناس وهو يتنقل في أحياء المدينة يدعو الناس بصوته القوي إلى الحرب والجهاد ، حتى اشتعلت الثورة ، ونال الثائرون من الفرنسيين ، واقتحموا قياداتهم وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسي ، ومئتين من ضباط الجيش الغازي وجنوده ، بينهم قائدهم .. وعندما قبض الفرنسيون على ستة من علماء الأزهر كان هذا الشيخ الشاب بينهم ، إنّه الشيخ سليمان الجوسقي المشتغل بالعلم في الأزهر ، والعامل بتجارة القمح .. ولم تنفع محاولات إنقاذ العلماء الستة ، فقد قتلهم الفرنسيون .. أطلقوا عليهم النار ، وقطعوا رؤوسهم ، ثم ألقوهم في النيل .. وكان حزن الناس شديداً على سليمان الجوسقي .. فقد كان سليمان «أعمى»[1] .

لم يكن سليمان الجوسقي بعيداً عن تلك الروح الفذّة للعلماء الذين وقفوا في وجه الأعداء والظالمين على امتداد تاريخنا ، وقد واجه العلماء الخمسة أعداءهم بصبر عظيم ، وعندما اقتيدوا إلى

---

(١) محمود الشرقاوي ، **بطولات عربية** ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٣٣-٢٣٦ .

ميدان القلعة في أواخر جمادى الأولى سنة ١٢١٣هـ ، أجلسهم قائد القوة الغاشمة القرفصاء ، وأطلق على كلّ واحدٍ منهم عياراً نارياً فأرداه قتيلاً ، ووفق روايات تاريخية فقد كان عددهم ستة أعدموا بتهمة التحريض على الثورة التي اشتعلت في مصر ضد الغزاة ، وبتهمة المشاركة فيها أيضاً . ويقول شيخ الأزهر آنذاك عبدالله الشرقاوي إن الفرنسيين قتلوا ثلاثة عشر من علماء الأزهر . أمّا العلماء الشهداء في تلك المذبحة الوحشية فهم الشيخ أحمد الشرقاوي ، علاّمة فقيه ، والشيخ عبدالله الشبراوي ، الإمام العمدة والفقيه الصالح ، والشيخ يوسف المصيلحي ، الشاب الصالح والفاضل الفقيه ، والشيخ سليمان الجوسقي ، شيخ طائفة المكفوفين ، وعلى قدر كبير من الصرامة ، والشيخ اسماعيل البراوي ، الخطيب المفوه والمحرض على الثورة[١] .

وقد تمادى الفرنسيون في وحشيتهم أثناء غزوهم لمصر ، ووقف أهل مصر ، وعلماء الأزهر في طليعتهم ، في وجه الغزاة ، ولعلّ السيد محمد كريم يشكل نموذجاً للروح الوطنية ، فقد أعدمه الفرنسيون حين كان حاكماً للإسكندرية رمياً بالرّصاص ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبّوت وطافوا به في شوارع القاهرة وهم ينادون :

---

(١) انظر في إعدام هؤلاء العلماء : عبدالعزيز محمد الشناوي ، **صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر** ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٤٤-١٥١ .

«هذا جزاء من يخالف الفرنسيس» .[1]

الإمام شامل :

هذا قائد ثورة تزامنت مع ثورة الأمير عبدالقادر في الجزائر ، وشكلت حالة جهادية هائلة التأثير في زمانها ، فقد تصدّى مسلمو القفقاس للاستعمار الروسي وحملاته المتتالية لاحتلال وطنهم ، وشهدت بدايات القرن التاسع عشر صراعاً شرساً خاصة في داغستان التي أعلن أهلها ثورتهم بقيادة علمائهم وشيوخهم ، وكان من أهم زعماء تلك الثورة غازي محمد ، وهو عالم وفقيه قاد الجهاد حتى استشهاده سنة ١٨٣٢ ، وخلفه حمزة بك الذي استشهد بعد ذلك بسنتين ، وتولى القيادة الإمام شامل الذي قاد حرب تحرير وطنه على قاعدة الجهاد طيلة خمس وثلاثين سنة ، وحقق انتصارات كبيرة على الغزاة ، خاصة في أوائل الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ولم يُلْقِ الإمام سلاحه ، إلاّ بعد صمود أسطوري ، وذلك سنة ١٨٥٩ ، ومنذ ذلك التاريخ تحوّل إلى أحد كبار الثوّار في العالم ، وصورة للنضال الإسلامي الذي لا يزال حيّاً ونابضاً بروحه بعد قرن ونصف من الزمان .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٧ . ومن شهداء هذه المواجهة الأمراء المماليك الذي سقطوا في معركة امبابة علي بك الدفتردار ، وعبدالله كاشف الجرف ، وإبراهيم بك الصغير ، ص ١٥١ .

لقد وصف الكاتب الداغستاني رسول حمزاتوف لحظة نادرة في نضال الإمام شامل نستعيدها هنا إكراماً لروحه : «أصبح جبل غونيب الخاتمة المأساوية للحرب . على قمته صلى الإمام صلاته الأخيرة . أثناء الصلاة استقرت رصاصة في يده المرفوعة . لم يرتعش شامل ، بل استمر في صلاته . ضرّج الدم ركبتي الإمام والبلاطة التي كان يقف عليها . أنهى الإمام الجريح صلاته . وحين نهض ، قال مقربوه :

- لقد جرحت أيّها الإمام .

- هذا الجرح تافه . إنه سيلتئم .

قطع شامل حزمة صغيرة من العشب ، وأخذ يمسح بها الدم عن ساعده - داغستان تنزف دائماً . الأصعب هو تضميد ذلك الجرح» .[1]

لقد كانت ثورة الإمام شامل استمراراً للروح الإسلامية التي ظلت تستعيد جذوتها كلما ادلهمّ ليل الأمة ووجدت نفسها تائهة في تحولات الزمان .

---

(١) انظر رسول حمزاتوف ، بلدي ، تعريب عبدالمعين ملّوحي ويوسف حلاّق ، ط٢ ، دار الجماهير العربية (دمشق) ، ودار الفارابي (بيروت) ، ١٩٨٤ ، ص ٣١٥ . وانظر عن ثورة الإمام شامل فتحي أسعد نعجة ، **شخصيات إسلامية ؛ علماء وقادة** ، ص ١٦٧-١٧٨ .

محمد عبيد : روح جعفرية

ومن مصر فتى آخر سيتابع خطى الحلبي ، لكن ضد الإنجليز هذه المرة في معركة التل الكبير ١٨٨٢ زمن أحمد عرابي ، ومصر تجمع من زادها نفقات جيشها حتى يثبت للإنجليز . . وتلك حكاية طويلة رائعة ، لكن غايتنا الضابط (الأميرالاي) محمد عبيد ؛ مصري من كفر الزيات ، ثائر صادق ، ووطني غيور ، وذاك هو والمقاومة تكاد تتلاشى في ذلك النهار الصعب يأخذ خياراً آخر . . هو الثبات في المعركة ، وقد تفرق الجيش وظل معه ثلاثة آلاف (عدد جيش مؤتة) أبوا أن يتزحزحوا عن مواقفهم . .

ثبت القائد وجنده أقدامهم واعتصموا بنشز من الأرض ، وأقاموا علم مصر فوق رؤوسهم ، وجاهدوا جهاد المستميت ، فصوب عليهم الإنجليز مدافعهم ، وهم صامدون لا يتراجعون ، فظلت النيران الغادرة تحصدهم حصدا حتى لم يبق إلا قائدهم الذي وقف دون العلم ، وأخذ يرمي ببندقيته . . وظل ممسكاً بالعلم حتى فاضت روحه(١) .

أليست هذه الروح جعفرية ، أليس نهج مؤتة هو الإعلان

(١) حسين مؤنس ، صور من البطولة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٣٣٦-٣٥٤ .

الإسلامي الأول لمشروعية الحرب والمقاومة ضد أعداء الأمة من مستعمرين وطامعين إلى آخر الزمان؟!

يوسف العظمة : سيف ميسلون

ويطل فتى آخر من صفحات التاريخ العربي المجيد .. إنه شهيد ميسلون القائد يوسف العظمة .. لقد تهاوت الحكومة في دمشق ، وقبلت إنذار الجنرال غورو بتسريح الجيش .. لكنه يأبى الانسحاب ، فيجمع ما ظل من عسكر ومجاهدين ليحقق أمرا واحداً ، هو أن قوات فرنسا الغازية لن تمر إلى ضريح صلاح الدين دون مقاومة .. وكانت تلك الليلة النادرة في تاريخنا ، إنه قائد حرب مجرب في الزمان العثماني ، ومدافعه هي التي اقتلعت يد الجنرال الفرنسي غورو من الكتف في حرب الدردنيل في غمرة الحرب العالمية الأولى ، ويوسف وزير دفاع الحكومة الفيصلية في دمشق ، وهو الذي في غمرة الضغط الفرنسي عليها لتسريح الجيش وقبول شروط فرنسا الاستعمارية ، قرر الخروج إلى ميسلون حتى لا تمر قوات الغزو إلى دمشق عاصمة الدولة العربية الأولى في الزمان القومي الجديد .

ذاك هو في ليلة الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ وقد خذلته الظروف السياسية ، وخذله بعض الذين خرجوا معه ، يتقدم والدنيا تتراجع من حوله إلى أحد المدافع ويأمر الرامي بصد

دبابة غازية ، لكنها سبقت إلى صدره بقذيفة فأزهر دمه في تراب ميسلون . .[1]

وبعد ميسلون كانت ثورة سوريا سنة ١٩٢٥ ، وقد امتلأت صفحات التاريخ بذكريات المناضلين وقائد الثورة سلطان باشا الأطرش ؛ ولعلّ بحث المؤرخين في الثورة قد غطّى جوانبها السياسية والعسكرية ، كما أن أسماء شهدائها محفوظة وعطرة ، ويمكن الإشارة هنا إلى اثنين من قادتها/شهدائها ممّن شكلّوا حالة متميزة في الصبر والتضحية . الأول هو الشهيد أحمد مريود المناضل القومي المعروف ، وقد خاض معارك كبيرة ضد المستعمرين الفرنسيين كان آخرها معركة «جباته الخشب» ، وقد وصف سعيد العاص استشهاد أحمد مريود في هذه المعركة ، وبطولات فؤاد سليم والأمير عزالدين الجزائري ، حفيد المناضل الجزائري المشهور الأمير عبدالقادر الذي أقام في دمشق بعد انحسار ثورته على فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر ، وقد استشهد الأمير عزالدين وسبعة من رفاقه في واحدة من المعارك

---

(١) انظر في استشهاد يوسف العظمة : صبحي العمري ، **أوراق الثورة العربية (٣) : ميسلون ؛ نهاية عهد** ، ط١ ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ ، ص ١٦٥-١٦٩ . وإحسان هندي **معركة ميسلون** ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، وساطع الحصري ، **يوم ميسلون ؛ صفحة من تاريخ العربي الحديث** ، دار الاتحاد ، بيروت .

التي خاضوها في ضواحي غوطة دمشق .

لقد استشهد أحمد مريود وشقيقه محمود في ساعة واحدة وهما يردّان الغزاة ، وبعد أن حققا صموداً فذّاً وهما يواجهان فرسان الأعداء ؛ ويلحق بهما من رفاقهما عدد يصل إلى أربعين شهيداً في المعركة نفسها[1] .

عمر المختار : شيخ الشهداء

وذاك هو شيخ المجاهدين والشهداء عمر المختار مرابطا على الثغر الليبي يصد غزو إيطاليا ، وقد هاله أن هذا الغرب الصليبي يوغل في أرض الأمة نهباً وقتلاً واحتلالاً . . ذاك هو يقاتل ، راياته عالية ، وجبهته مضيئة ، والعام ١٩٣١ ، وثورة البراق في

(١) انظر كتاب سعيد العاص ، **استشهاد البطل المبجّل أحمد مريود** ، (ب .ن . ب ت) ؛ وكتابه **استشهاد الأمير عزالدين والمعارك الأخيرة** (ب ن . ب ت) ؛ وكتابه : **صفحة من الأيام الحمراء ؛ مذكرات القائد سعيد العاص** ، ١٨٨٩-١٩٣٦ ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨ . وانظر قصائد في رثاء الشهداء في : ديوان الثورة ، جمع محمد ياسين عرفة ، المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٦م ، وانظر في مسيرة أحمد مريود : **محمود عبيدات ، أحمد مريود ١٨٨٦-١٩٢٦ ، قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن** ، رياض الرّيس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩٧ .

فلسطين لم تهدأ نارها بعد ، وما زمن ثورة سوريا من زمانه ببعيد . . لقد خرج من زاوية القصور التي كان شيخاً لها (كما سيخرج عزالدين القسام من جامع الاستقلال في حيفا) وقاد قواته في الجبل الأخضر ، وصار القائد العام والرئيس الأعلى للمجاهدين ، ودارت معاركه المشهورة الظافرة ، التي بلغ عددها (٢٦٣) معركة في عشرين شهراً ، وقد قاتل قبلها عشرين سنة ، . . وفي المشهد الأخير نراه جريحاً وحوله رفاق شهداء ، وجواد صريع ، وقد أعدم شنقاً في بنغازي ، وواجه الموت غير هياب ولا وجل[١] .

وسيرة عمر المختار نموذج للقيادة النابعة من روح الجهاد ، ومن رؤى الذين سبقوه في دروب الفتح والمقاومة في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله . . وعمر المختار مثل أسد بن الفرات ، وعلى مقربة من القيروان التي امتدّ الفتح منها حتى شواطئ المحيط الأطلسي وشواطئ البحر المتوسط الأوروبية ، وقد بدأ رحلة النضال مبكراً ، فقاد المجاهدين ضد الإيطاليين عندما نزلوا ببرقة سنة ١٩١١ ، ثم في الجبل الأخضر في العشرينيات ، وهو يقود فرسانه إلى معارك دامية حقق فيها انتصارات كبيرة وأدمى أنوف الغزاة الفاشيين ، وتحت الضغط العسكري ، والحصار ، وقهر الناس جوعاً وعطشاً ونفياً وسجناً ، وإلقاء المناضلين من الطائرات ، ومصادرة الثروات ، والمحاكمات «الطائرة» الظالمة ، وسائر وسائل

---

(١) الأعلام ، ٥/٦٦ .

الاستعمار القبيح في البلدان المحتلة . . كان المختار يصمد في وجه هذا كلّه ، ويقاتل حتّى الطلقة الأخيرة في السلاح ، والرمق الأخير في الروح . . وصورة عمر المختار ، الأسد الجريح ، ما تزال صرخة في الضمير الإنساني ، ردّدها أحمد شوقي في رائعته فيه :

ركـزُوا رفـاتَكَ في الرمـالِ لواءَ
يستنهِضُ الواديَ صباحَ مسَاءَ[1]

وعلى مشهد من عشرين ألفاً من أهل وطنه ، جمعتهم السلطة الاستعمارية قسراً ، نفّذ حكم الإعدام بالشهيد البطل في ١٦ أيلول ١٩٣١ . وظل كما قال أبوالحسن الأنباري في ابن بقية بعد صلبه على جسر بغداد :

علّوٌّ في الحَـياة وفي المَمَـات
لحقٌّ تلك إحـدى المُعـجِزَاتِ[2]

---

(١) انظر القصيدة في : أحمد شوقي ، **الشوقيات** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٣/١٤-١٦ .

(٢) انظر القصيدة في **وفيات الأعيان** ، ٥/١٢٠-١٢١ . وانظر في سيرة عمر المختار : **عمر المختار نشأته وجهاده من ١٨٦٣-١٩٣١** ، إشراف د . عقيل محمد البربار ، الجماهيرية العربية الليبية ، ١٩٨١ .

وفي ليبيا نفسها ، وقبل استشهاد المختار بخمس عشرة سنة كان فتى من الأردن بين قادة الجهاد الليبي ، وقد لقي وجه ربه شهيداً ، وخلف رحيله أسى غامرا بين رفاقه ، ودّون أخباره الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» ، فقال في وصف إحدى الوقائع :

« وفي هذه الوقعة [بحدود ١٩١٥] جرح الضابط نجيب الحوراني الذي كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ، ولكنه كان يغامس بنفسه في كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة رحمه الله ، ولم يحزن السيد [السنوسي] على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد إخلاصه . وكان السيد يكتب لي من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه ، والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلي من مشايخ بلاد عجلون ترك في بلاد الغرب ذكراً خالداً»[1] .

عز الدين القسّام : الشهيد الإمام

هو حفيد نهر الشهادة الجعفري ، والمناضل الذي نهض بأمانة

---

(١) لوثروب ستودار ، **حاضر العالم الإسلامي** ، ترجمة عجاج نويهض ، مجلد ٢ ، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٢هـ : انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، ص ١٦١ .

النداء على الأمة أن «حي على الجهاد» إلى يومنا هذا ، والشيخ القسام مقاتل صلب في ثورات سوريا على الفرنسيين ، ومحكوم عليه بالإعدام من قبل الاستعمار الفرنسي . . إنه معلم الثورة في مناخها الإسلامي ، وخطيب المسجد بروح النضال ضد الإنجليز والصهاينة ، وقد خرج مجاهداً في سبيل الله وحاله كما وصفه عجاج نويهض :

« سافر القسام وكان جواز سفره مصحفا في جيبه وفي قلبه »(١) .

ويبدو أن حركة القسام ، على الرغم من شح مواردها وفترتها القصيرة ، تظل قاعدة للحركات الإسلامية النضالية الحديثة على الرغم من ظهور الحركات الإسلامية الإصلاحية الكبيرة في الجزائر وليبيا والسودان والجزيرة ، ذلك أن حركته جاءت في مرحلة حاسمة من تاريخ النضال في فلسطين حيث اشتد ضغط الصهاينة والإنجليز ، ووصل نضال شعوب الأمة في أقطار كثيرة مراحل حرجة من أجل الحرية والاستقلال .

---

(١) **محمد أبوفارس** ، شهداء فلسطين ، ط١ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٠ ، ص١٦ . وانظر عبدالعزيز السيد أحمد : **عزالدين القسام رائد النضال القومي** ، ط١ ، أيام فلسطينية ، ١٩٧٧ ؛ علي حسين خلف ، **تجربة الشيخ عز الدين القسام** ، دار ابن رشد ، عمان .

كانت ثورة القسّام سنة ١٩٣٥ تعبيراً عن تحوّل وطني نحو السبيل الوحيد لانقاذ فلسطين من الإحتلال البريطاني والخطر الصهيوني . وقد جاء القسّام إلى فلسطين حاملاً أوسمة نضاله في ثورة شمال سوريا ضد الفرنسيين (١٩٢٠-١٩٢١) ، ومتكئاً على رؤية حاسمة في موضوع الصراع مع الغرب المستعمر ، وهي أن الجهاد هو الطريق إلى النصر على الأعداء ، ومعادل النصر الوحيد هو الشهادة في سبيل الله ، إن هذه الرؤية التي رسخّها الشيخ الثائر في حيفا من خلال التدريس والخطابة ، شكلت حالة من التنبّه الوطني خاصة بين أنصاره من الفلاحين الفقراء ، ويوم غادر حيفا في الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ ، مع نفر من أنصاره ، متوجهاً إلى جنين للدعوة للجهاد ، وقعت المعركة التي آثر ورفاقه خوضها في العشرين من الشهر نفسه ، على الرغم من كثرة قوات العدو ونجداته وحصاره الشديد للمنطقة . لقد صعد الشيخ القسّام معراج الشهادة بوعي كامل ، لأن دمّه سيكون أوّل الطريق الذي ما يزال حرّاسه حوله من فتية يحملون اسمه ، وكتائب اختارت روحه دليلاً وهادياً في الزمن المرّ الذي أطبق بعتمه على فلسطين . إنه ورفاقه نموذج فذّ للطليعة التي تختار صياغة فجر البداية بالدم الأرجوان ، إنها لحظة شهادة لا بدّ منها كي يطل على فلسطين زمان الحرية من مئذنة جامع الاستقلال في حيفا ، وقد ألقى الشيخ ظلال حضوره على الحركة الوطنية الفلسطينية منذ ما يقرب من سبعة عقود ، وكشف لحركة التاريخ معنى فكرة الأمة الواحدة ، ودور العلماء في النضال ، وعبّر

باستشهاده عن نقاء حركته وبهاء رؤيته ، وهو يصل النضال في سبيل تحرير فلسطين بنهر الدم المقدّس الذي صهل في روح جعفر يوم مؤتة ، فمدّه نهراً من الصبّر والاستشهاد إلى زماننا هذا .

لقد تنبه الكتاب والمفكرون في غمرة استشهاد القسّام إلى رمزية هذا الاستشهاد ، وأشار أكرم زعيتر في مقالة له عقب جنازة القسّام إلى الخلط الذي أراده الاستعمار في المصطلح حتى لا تبدو معركة القسّام مقاومة وطنية إسلامية ، وقد سبق لسلطات الاحتلال البريطاني أن أعدمت الشهداء الثوّار ، فؤاد حجازي ، وعطا الزير ، ومحمد جمجوم سنة ١٩٣٠ بتهمة سمّتها «جرائم قتل» في «الاضطرابات» التي وقعت في شهر آب سنة ١٩٢٩ ، مع أن هذه الأحداث هي ثورة البراق .

لقد أطلقت السلطة على القسّام ورفاقه صفة «الأشقياء» ، فكتب أكرم زعيتر مقالة عنيفة بعد جنازة القسام قال فيها :

« ..عصابة أشقياء في البلاغ الرسمي ، وعصبة من الشهداء في سبيل القضية . .

يا صديقي ، يا صديقي الشهيد عز الدين القسّام ، ليتك استطعت اليوم أن تنهض من نفسك لترى كيف رفعتك أمتك وصحبك على الأكفّ والهام ، لقد كان هذا اليوم يومك الأغرّ المبجّل .

لقد سمعتك يا صديقي قبل اليوم خطيباً مفوّها تتكئ على

السيف ، وتهدر من على المنبر ، وسمعتك اليوم خطيباً تتكئ على الأعناق ، ولا منبر تقف عليه ، ولكنك والله اليوم أخطب منك حيّاً .

. . . ألا إن الأشقياء التعساء هم الذين يطيقون الذّل ويقيمون على الهوان ، ينكسّون الرؤوس ويخفضون الهامات ، أما هؤلاء فشهداء سعداء حتى لو قالت الحكومة المنتدبة ، وقال قانونها إنهم عصابة أشقياء»[1] .

وفي تأبين القسّام الذي تم في حيفا بتاريخ ١٩٣٦/١/٥ قال الشيخ سليمان التاجي الفاروقي : «يا جيران القسّام نحجُّ إلى بلدكم كما نحجّ إلى كعبتنا . القسّام نقل القضية من دور الكلام إلى دور العمل»[2] .

وقال أكرم زعيتر : «بالأمس دفنا القسّام ودفنا معه العدل البريطاني . لماذا التمجيد والتأبين؟ الأنهم ماتوا؟ كلاّ ، بل لأنهم عرفوا كيف يموتون وأيّ سبيل إلى الجنة يسلكون؟ القسّام خاطب

---

(١) أكرم زعيتر ، **بواكير النضال ؛ من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥** ، ١ ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٧٩٩ .

(٢) أكرم زعيتر ، **يوميات أكرم زعيتر ؛ الحركة الوطنية الفلسطينية ، ١٩٣٥-١٩٣٩** ، ط١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٤١ .

العاتي بأفصح لغة وأكرم بيان ، فتح في القضية باب الجدّ ، ودقّ بيده المضرّجة باب المجد»[1] .

وقال إبراهيم الشنطي : «في يعبد لنا ثأر . لنا حسين . لنا كربلاء . لنا اساتذة . لنا شهداء»[2] .

وقال حمدي الحسيني : «إن القسّام عدّل من هذه القضية ما اعوّج»[3] .

إن الغاية من هذا الوقوف المتأني عند استشهاد الشيخ عز الدين ورفاقه هي التأكيد على تشكلّ اسمه ودعوته ونضاله ودمه في صورة رمز قومي إسلامي ما يزال حاضراً وهادياً ودليلاً ، بعد ما يقرب من سبعة عقود طوال مثقلات بأوجاع الأمة التي رأى الناس من حالها كلّ عجيب .

القسام ، القائد الأزهري (ويا لذكرى سليمان الحلبي الأزهري) ، والقسام المقاتل في ثورات سوريا ضد القوات الفرنسية والمحكوم عليه بالإعدام ، لم يتوقف ، ضمن رؤيته الشمولية للأمة ،

(١) المصدر نفسه ، ص/٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص/٤١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

عن أداء دور القيادة ، وطرح شعاره «هذا جهاد ؛ نصر أو استشهاد» وسار في خياراته حتى لقي وجه ربه شهيداً مقاتلاً في صدامه ورفاقه مع الجيش البريطاني المحتل في أحراش يعبد ، والدنيا لا توازن فيها بين قدراته وبين قدرات الأعداء ، وأمته مغيبة تحت قهر الاستعمار . . لكن القسام صار إمام المجاهدين في فلسطين ، فقد تسلم راية ثورته مجاهدون وقادة شهداء ، سيرة كل واحد منهم حياة نابضة بالخلق والحزم ، ومنهم : فرحان السعدي (١٩٣٧) وهو حامل رايته بعده ، ويوسف أبودرة (١٩٣٩) ، وعبدالرحيم الحاج محمد (١٩٣٩) ، وحسن سلامة (١٩٤٨) وسعيد العاص وهو الذي قاتل المتمردين في البلقان ، وأسر في اليونان ، وكان أحد قادة ثورة سوريا سنة ١٩٢٥ حيث جرح مرتين ، ثم شارك في ثورة فلسطين حتى لحظة استشهاده (١٩٣٦) ، ويمتد ظل الراية القسامية إلى اثنين من العسكريين تطوعا للدفاع عن فلسطين وهما الشهيد محمد الحنيطي قائد الدفاع عن حيفا (١٩٤٨) والشهيد أحمد عبدالعزيز قائد المتطوعين في الجبهة الجنوبية الفلسطينية (١٩٤٨)[١] .

---

(١) انظر محمد أبو فارس ، **شهداء فلسطين** ، وأكرم زعيتر ، **يوميات أكرم زعيتر ؛ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩** .

عبدالقادر الحسيني : شهيد القسطل

وهذا قائد بارز في تاريخ نضال الأمة من أجل فلسطين ، مثقف متميز ، ومناضل صلب ، وفتى الثورة الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) يوم كان شيوخنا يصعدون إلى حتوفهم باسمين . . ويوم كان سعيد العاص يهوي نجماً في معركة الخضر وعبدالقادر يصاب بالجراح .

قاد الثوار في منطقة القدس سنة ١٩٣٨ ، وجرح في معركة حولها ، وأخذته ظروف النضال والجراح إلى سوريا ولبنان والعراق حيث دخل دورة للضباط في الكلية العسكرية ، ونال نصيباً من السجن لتأييده ثورة رشيد عالي الكيلاني ، ثم جرب النفي والمعتقل قبل أن يغادر العراق سنة ١٩٤٣ ليمضي عامين في المملكة العربية السعودية . . ثم إلى المانيا فالقاهرة ، ثم قائدا للجهاد المقدس ، لتبدأ معركته الكبيرة وهو في طريقه إلى الشهادة ، بعد أن خذله قومه ولم تنطقه رماحهم ، وقد آلمه سقوط القسطل في غيابه . فأخذ قراره الكبير عندما عاد من دمشق غاضباً ، باستعادة القسطل ، وقد تم لقواته ذلك ، ولكنه غفا على حلم الخلود بعد أن قاتل حتى الرمق الأخير . . لقد كان مقتله اغتيالا لحلم ، وجرحاً يشير نزفه إلى أمة خذلت قادة فتية الجهاد المقدس ، . . لكن نفراً من الصادقين قاتلوا معه . . لقد كان إبراهيم أبو دية معه ، وكان هارون بن جازي قائداً في مسيرته . .

وكان التقدم والاقتحام قراره الكبير الأخير . . قرارا أدى إلى تحرير القسطل ، القسطل التي عطرها دم قائدها الشهيد عبدالقادر الحسيني ، فتى الأربعين ونجمها الجميل[1] .

في زمن القسطل ذاك (سنة ١٩٤٨) كانت كتائب عربية تقاتل في المدى الممتد بين الفالوجة وباب الواد ، وفي لحظة نادرة خالدة من ساعات معركة باب الواد التي انتصر فيها الجيش الأردني ، كان صوت المؤذن الشيخ موسى العجلوني يرتفع بالآذان ، وقد حمي الوطيس ، في ساحة مقام الصحابي الجليل معاذ بن جبل ، وعلى وقع النداء الخالد «الله أكبر الله أكبر» تقدمت سرايا الجيش إلى قلب المعركة تصد الغزاة الصهاينة وتوقع فيهم (٨٠٠ قتيل) ، وظل مشهد خالد بعد انجلاء المعركة :

«عند شروق الشمس كان على أرض تلة معاذ بن جبل سبعة من جنود الجيش العربي يتوسدون الثرى في رقدتهم الأخيرة . كانوا قد تلقوا رصاص العدو في صدورهم ونحورهم ، وافتدوا بلادهم بأنفسهم ، وحافظوا على شرف الجندية . . كان هناك

---

(١) انظر نبيل خالد الآغا ، **قضية فلسطين في سيرة بطل ؛ الشهيد الحي عبدالقادر الحسيني** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .

شهيد آخر ، وأربعة مناضلين ومدني من قرية عمواس . .»(1)

هذا مشهد واحدٌ من مشاهد كثيرة في معارك اللطرون وباب الواد ، وتظل أسماء الشهداء قناديل تضيء الدروب الصعبة إلى فلسطين ، لقد حاربوا في الزمان المرّ ، واختاروا درب الشهادة حتى لا تضيع القدس . وأولئك هم يضيئون الزمان من جمر تذكرنا لهم : خالد الخريشا ، ومحمد الحنيطي ، وعبدالمجيد المعايطة ، وأحمد محمود بزاخ ، وعيد أديلم وغيرهم من الخالدين .

الضحى والصهيل : من الأوراس إلى فلسطين

ويستمر نهر الدم حتى زماننا هذا والأسماء العظيمة في البطولة لا ينتهي سيلها ، والأسماء الخالدة من الشهداء هي التي غيرت وجه التاريخ . . فأولئك هم شهداء ثورة العشرين في العراق ، وشهداء ثورة سوريا الكبرى ، وشهداء الأمة في حرب ١٩٤٨ في فلسطين ، ثم في صدّ العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ . وشهداء ثورة الجزائر ، وشهداء ١٩٦٧ ، وشهداء يوم

---

(١) سليمان موسى ، **أيام لا تنسى ؛ الأردن في حرب ١٩٤٨** ، ط٢ ، مطابع القوات المسلحة ، عمان ١٩٩٧ ، ص ٢٦٩ . وانظرا القائمة الملحقة بشهداء الجيش العربي ، ص ٥٧٩-٥٩٤ ؛ وانظر في **بطولات الجيش المصري وشهداائه في حرب ١٩٤٨ : هؤلاء الأبطال** ، إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة ، القاهرة .

الكرامة العظيم ، وشهداء زمان العبور الكبير ، وشهداء الثورة الفلسطينية ، وشهداء المقاومة اللبنانية ، والشهداء الذين حملوا روح القسام وعنفوان الحسيني .

أولئك هم العربي بن مهيدي ، وديدوش مراد ، وعلي بو منجل ، و يوسف زيغود (الجزائريون) ، وفراس العجلوني ، الطيّار الأردني الذي واجه سلاح الجو الإسرائيلي بشراسة صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، ومنصور كريشان ، وشهداء الكرامة في الحرب ضد العدو الصهيوني على الجبهة الأردنية بعد حزيران ، والفريق عبدالمنعم رياض شهيد مصرعلى ضفة قناة السويس . أمّا صور النضال الجزائري فهي ملحمة إسلامية ووطنية هائلة ، وقد ظلّ في ذاكرة الأجيال أن بلد المليون شهيد قد خاضت واحدة من أنبل الثورات في التاريخ الحديث ، وقد وصلت هذه الثورة فروعها بجذورها الإسلامية ، في مشاهد خالدة وقعت خلال معارك الثورة في أوراس والجنوب والمدن الكبيرة ، ومن هذه المشاهد ما وقع خلال إحدى معارك الثورة في الجنوب ، إذ روى الكاتب الجزائري المجاهد عبدالحميد شيران صوراً من معركة الجنوب التي قاد بنفسه إحدى مجموعاتها يوم ١٩٥٧/٦/٢٩ ، وخاطب رفاقه وهم يقتربون لإبادة مجموعة من الضباط القادة من جيش فرنسا :

«أخذ في تلاوة الآية الكريمة على مسمع مجاهديه ، وهي بعد البسملة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(الأنفال ، ٦٥)

ثم قال للمجاهدين : ها هو اليوم الذي هجرتم من أجله كلّ ما هو عزيز عليكم طلباً لإحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ، فلا تخافوا من كثرة عدد العدو ووفرة عتاده . اصبروا واثبتوا . .»[١]

ولقد كان الشهيد العربي بن مهيدي من أكثر قادة الثورة الجزائرية حضوراً ، وكان في الثلاثين من عمره عندما انطلقت الثورة ، وقد تولى قيادة المنطقة الخامسة (وهران) ، ووقع في الأسر في شباط سنة ١٩٥٧ ، ثم أعدم شنقاً في آذار من العام نفسه ، وقد قال للعقيد الفرنسي فيجار الذي تولى محاكمته :

«إنكم تتحدثون عن فرنسا من دانكرك إلى تامنراست ، وإني

---

(١) انظر بسام العسلي ، أيام جزائرية خالدة ، ط١ ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٧ . وانظر في الخلفيات التاريخية لثورات الجزائر الأولى كتاب بسام العسلي عن الشهيد محمد المقراني وثورة ١٨٧١ ، ط١ ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨١ وقد استشهد المقراني وهو يؤدي صلاة الظهر بأربع رصاصات أصابته في جبهته ، وانظر جمال الدين الآلوسي ، الجزائر بلد المليون شهيد ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠ .

لأتنبأ لكم بميلاد الجزائر من تافراست إلى دانكرك . .»[1] .

أما حرب رمضان (تشرين الأول ١٩٧٣) ففي صفحاتها المنشورة ما يعزّز ثقة الأمة بروح القتال ضمن منظومة القيم الإيمانية التي سرت من زمن الرسالة إلى أرواح المقاتلين في سبيل الله . وقد كان عبور جيش مصر العظيم قناة السويس عملاً يذكّر بزمان الأجداد ، وكم عبر جيش مصر إلى بلاد الشام ليلتقي بأهل بلاد الشام في الحرب ضد الصليبيين والتتار والصهاينة .

إن الرائد حمدان محفوظ ، والرائد الطيار علاء الدين عابدين ، الشهيدين على ثرى الجولان ، والعميد إبراهيم السيد الرفاعي ، الشهيد على ثرى سيناء ، يشكلون نماذج مضيئة من شهداء هذه الحرب التي قاتلت فيها الأمة كلّها ، ولعل في قصة الشهيد الرفاعي ما يشكل رمزاً نشير إليه هنا تحيّة لشهداء هذه الحرب الظافرة .[2]

---

(١) انظر فايزة سعيد ، **سنوات الدم : تجربة الثورة الجزائرية** ، مكتبة روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١١٣ .

(٢) انظر حول بطولات الجيش السوري في حرب تشرين ١٩٧٣ ، جان الكسان ، **القائد والمعركة** ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٣ ، ص ٩٣-١٢٧ . وعدنان الملوحي ، **وعادت القنيطرة** ، ط١ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٧٤ .

لقي الشهيد وجه ربه وهو في مقدمة رجاله يوم ١٩/١٠/١٩٧٣ ، وهو يقاتل العدو الإسرائيلي بعد أن قام بعشرات الغارات على مواقعه بالضفة الشرقية للقناة . . كان شجاعاً حتى قال عنه أحد جنوده : «إن الموت يخاف الاقتراب من القائد الرفاعي»[١] .

كان الرفاعي قائداً لوحدات العمليات الخاصة في قوات الصاعقة ، وقد حصل على النجمة العسكرية ثلاث مرات في أواخر الستينات ، ثم على نوط الواجب العسكري سنة ١٩٧١ ، ثم وسام نجمة الشرف العسكرية سنة ١٩٧٣ ، وفي حرب رمضان وصل ذروة تألقه العسكري والإنساني عندما عانق ثرى الوطن شهيداً في سبيل الله ، ومن أجل تحرير الأرض من الغاصبين . لقد كان معه في الحرب إخوان مهندسون ومقاتلون له إخترقوا الساتر الترابي الضّخم ، وآخرون عبروا بطائراتهم أو صدّوا العدو بصواريخهم ، . . وكان بين الشهداء أبطال ذوو شجاعة خارقة : منهم الطيار عمر عبدالعزيز ، وإسماعيل إمام ، وصبحي الشيخ ، وحسين بشير ، واللواء شفيق متري سدراك ، والعقيد إبراهيم عبد التواب أحمد ، والمقدم صلاح عبدالسلام حوّاش[٢] .

---

(١) انظر حمدي لطفي ، العسكرية المصرية فوق سيناء ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣١٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه ٣١٤-٣٣٥ .

أما شهداء المقاومة الفلسطينية الثلاثة في عملية فردان ببيروت : كمال ناصر ، وكمال عدوان ، ومحمد يوسف النجار ، فقد دبّر العدو جريمته ذات ليل ، لكنهم خرجوا وأسلحتهم بأيديهم إلى بوابات بيوتهم كي يردّوا الموت ، غير أن الأعداء عاجلوهم بما دبّروا ، وذهب الثلاثة إلى سجل الشهادة العربي الفلسطيني مكللين بالأسى والفخر في هذا الزمان الصعب ، والليالي المثقلات بكل عجيب[1] .

ومنهم عباس موسوي على ثرى جنوبي لبنان .. وفتية المقاومة والعمليات الاستشهادية من أحمد قصير أوّل الدم والنشيد ، وسناء محيدلي ، ويسار مروة ، إلى عماد عقل ، ويحيى عياش ، وسعيد الحوتري ..

إنهم أهل النشيد الكبير :

تمرستُ بالآفات حتى تركتُها
تقولُ : أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأتيّ كأنَّ لي
سوى مهجتي ، أو كانَ لي عندها ثَأْرُ
.. ولا تحسبنَّ المجدَ زِقّاً وقَيْنَةً
فما المجدُ إلا السّيفُ والفتْكَةُ البِكْرُ

---

(١) انظر بيارق لا تسقط ، اللجنة الشعبية الأردنية لدعم الانتفاضة ، عمان ١٩٩٤ .

.. وتركُكَ في الدُّنيـا دويّاً كـأنَّمـا
تداولَ سـمعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْـرُ(١)

إن وقوفا متأنياً عند ظاهرة الاستشهاديين في جنوبي لبنان وفلسطين أمر ضروري ، خاصة وأن العدو يشوه هذه الظاهرة النبيلة ، يسعفه في ذلك إعلام غربي متحيز ضد الإسلام وأهله ، وسنعود إلى تفاصيل هذه الظاهرة في صفحات لاحقة .

إن قادة مثل الشهداء عماد عقل ، ويحيى عياش ، ومحمود أبو هنود ، ورفاقهم ، يشكلون النموذج الجديد لجيل إسلامي قيادي وملتزم ، وهاهي أرواحهم تجد امتدادها في انتفاضة الأقصى ، وفي الكتائب المقاتلة التي حملت أسماءها الكريمة الممتدة بين «الأقصى» ، و «القسام» . إنهم جميعاً ينسجون صورة الزمان / الحلم الذي يأتي بعد أن يغفو الشهداء على ثرى فلسطين كما وصفهم الشهيد عبدالرحيم محمود :

كسَا دمُه الأرضَ بالأرجوانِ
وأثْقلَ بالعِطرِ ريحَ الصَّبا
وعفَّرَ منُه بهيَّ الجبينِ
ولكن عفاراً يزيدُ البَهَا(٢)

---

(١) شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٢/٢٥٣-٢٥٤ .

(٢) ديوان عبدالرحيم محمود ، جمع وتقديم كامل السوفدي ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٢ .

شقائق النعمان :
من بوابة فاطمة إلى بوابة صلاح الدين

تطلّ على الباحث في مسيرة النضال لتحرير جنوبي لبنان وفلسطين صورٌ جديدة للاستشهاديين الشباب ، وتفتح الصور نوافذ للتذكر ، وتدق باب الصمت الذي ران على كثيرين من أبناء الأمة وهي تتشظى تحت ضغوط الخطرين الكبيرين : الاستبداد والاستعمار ، كما توقظ هذه الصّور أسئلة الدّم الذي خطت به صفحات كتب الشهادة من بدرٍ إلى زمن فلسطين الاستشهادي الجديد .

إن الجيل الذي صاغ زمن العمليات الاستشهادية ليس منفصلاً عن جذور الحالة الإيمانية الجعفرية ، ولا بدّ أن فحصاً متأنياً للتاريخ الإسلامي سيكشف عن حالات نادرة وعظيمة ، وإن كان مؤرخو حروب التحرير يصفون في الغالب حالات الحرب بصورة جماعية ، وقبل زمن الصحافة والتوثيق والطباعة يصبح من الصعب أن نتوقع تفاصيل فردية كثيرة في العصور السابقة والمناطق البعيدة التي اجتازت إليها جيوش الفتح .

إن جيلاً ممثلاً في رؤى دلال المغربي ، والشيخ راغب حرب ، وبلال فحص ، وخالد محمد أكر ، وميلود بن الناجح بن نومه ، وخالد أزرق ، وسناء محيدلي ، وعبدالله عبدالقادر ، وعلي طلبة

حسن ، هم الذي يصلون روح الأمة بشهداء حرب تشرين ، ودم عبدالمنعم رياض ، وجول جمال ، وعبدالرحيم محمود ، وشهداء ثورة الجزائر ، وهم يمثلون أرض الأمة ، لكنهم التقوا في المدى الممتد بين صور وغزّة ، وقد أنجزوا مع فتية المقاومة كلّهم بناء حائط لرجم الأعداء عند بوابة فاطمة في جنوبي لبنان ، ويطاردون العدو نفسه عند بوابة صلاح الدين في رفح[1] .

إن زخماً من الكتابة حول تحرير جنوبي لبنان يكشف عن مشاهد متميزة من الحالات الاستشهادية وصداها في نهضة الأمة ، ووعيها على طبيعة الصراع ، والأمل الذي شكلته طلائع الفتية الذين قاتلوا العدو الصهيوني حتى تراجع عن جنوبي لبنان خاسراً ذليلاً ، بعد أن نسجت كوكبة من أبناء لبنان رايات العمليات الاستشهادية ، ومن نجومها أحمد قصير (عملية تدمير مقر الحاكم العسكري في صور ١٩٨٢/١١/١١) ، والشيخ راغب حرب القامة العالية في وجه الغزو الصهيوني وعملائه حتى لقي وجه ربه في (١٩٨٤/٢/١٧) ، وعلي صفي الدين (١٩٨٤/٤/١٣) ويسار مروّة (١٩٨٤/٥/٢) ، وبلال فحص (١٩٨٤/٦/١٦) ، وحسن قصير (١٩٨٥/٢/٥) ، ووجدي الصايغ

(١) حول الشهداء العرب في جنوبي لبنان ١٩٧٨-١٩٨٧ انظر : **التحدي والتصدي ، توثيق عمليات جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية** ، ط١ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ .

(١٩٨٥/٣/١٢) ، وسناء محيدلي (١٩٨٥/٤/٩) ، ومالك وهبي (١٩٨٥/٤/٢٠) ، ووفاء نور الدين (١٩٨٥/٥/٩) ، وابتسام حرب (١٩٨٥/٧/٩) ، وهشام عباس (١٩٨٥/٥/١٥) ، وعلي غازي طالب (١٩٨٥/٧/٣١) ، وجمال الساطي (١٩٨٥/٨/٦) ، ومنّاع قطايا (١٩٨٥/٨/٢٨) ، وعصام عبد الساتر (١٩٨٥/٩/٣) ، ومريم خير الدين(١٩٨٥/٩/١١) ، ونورما أبو حسّان (١٩٨٦/٧/١٧)[١] .

إن فتية العمليات الاستشهادية في الثمانينات يمثلون اتجاهات سياسية وفكرية عديدة في لبنان وفلسطين بخاصة والعالم العربي بعامة ، لكن تنامياً واضحاً في أعداد الشهداء الذين يمثلون منظمات إسلامية يبدو واضحاً من البيانات التي كانت تصدر آنذاك بعد إنجاز العمليات الاستشهادية ، وهذا يعني أن القاعدة الفكرية العامة كانت إيمانية إسلامية ، مع قبولهم لقوى المقاومة الوطنية المعروفة . إن الواجب الوطني والحسّ القومي قد امتزجا بالروح الإسلامية للجهاد ، وقد عبّر أحد أبطال العمليات الاستشهادية في جنوبي لبنان ، وهو وجدي الصايغ الذي فجّر

(١) انظر : **التحدي والتصدي ، توثيق عمليات جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية- الشهداء العرب اللبنانيون في جنوب لبنان ، ١٩٨٢-١٩٨٧** ، ط١ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ . وانظر : بسّام العسلي ، **عروس الجنوب** ، ط١ ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٥ .

سيارة بدورية إسرائيلية سنة ١٩٨٥ عن هذا الحس في وصيته :

«إيماناً مني بأننا كلّنا مسلمون ، منّا من أسلم بالقرآن ، ومنّا من أسلم بالإنجيل . . وأن ليس لنا من عدو يقاتلنا في ديننا وفي حقنا وفي وطننا إلا اليهود . . وإيماناً مني بأن تحرير الجنوب والبقاع الغربي وراشيا هو واجب وطني وقومي ، كما أن تحرير فلسطين واجب قومي ووطني . . أقدمت على ما أقدمت عليه ، ورددت الوديعة إلى أمتي . .»[1]

وفي أواخر الثمانينات ، يرفد شباب الأمة في فلسطين نهر الشهادة الذي انطلق من جنوبي لبنان بكوكبة جديدة من الطيور الخضر- شهداء انتفاضة فلسطين الأولى ، ويعلو النداء الإسلامي بالجهاد في غمرة تحولات الزمان الصعب حول فلسطين ، وتكشف قراءات الباحثين في أحاديث عائلات الشهداء ورفاقهم عن تعمق الحسّ الجهادي في هذه المرحلة ، وعن تغيّر في الخطاب السياسي نحو الحسّ الإسلامي الجهادي ، دون أن يتوقف الخطاب الوطني بصوره المعروفة ، وتمتزج اللغة في التعبير عن صيغ جديدة توحد مفاهيم تحرير الأرض والوطن بالشهادة وعقيدة الأمة في معركة طويلة لا يتحقق فيها التوازن واقعياً بين عدو غارق في السلاح ، وبين فتية يقاتلون بالحجارة ، إلاّ بالتضحية التي تستحضر معاني الشهادة كلّها في القرآن الكريم والحديث

---

(١) التحدي والتصدي ، ٧٦/٢ .

الشريف ، وسير شهداء الأمة من زمن بدر ومؤتة واليرموك إلى زماننا الجديد ، وفتح الزمان على السماء التي تحتضن الشهداء في جنة عرضها السموات والأرض منذ أن تخرج جنازاتهم المستبشرة على نور الصوت العظيم «الله أكبر ، الله أكبر» ؛ وكما هي صورة الأشقاء الشهداء في زمن الفتح الأول ، تعود المشاهد ، فنرى الأشقاء يتوافدون على المعركة ، ونقرأ في «التراث» الجديد حكاياتهم ، ومنها في زمن الانتفاضة الأولى استشهاد الشقيقين عبدالحليم وفواز محمد رباح بخيت ، ولا يفصل بين موعد كل منهما عن الخلود إلا ثمانية عشر يوماً ، وفي هذا السياق ، سياق شهداء الانتفاضة الأولى تتدفق جداول الدم الطهور على مدى سنوات طوال ، بين سامر مرعي ابن التاسعة الذي عصب رأسه بعصبة خضراء كتب عليها «لا إله إلا الله» ، ويقول ها أنا شهيد ، ثم يخرج مع الشباب لمواصلة انتفاضتهم ، فيلقى وجه ربّه شهيداً في نهار ليلة القدر ، إلى مجاهد محمد حسن شحادة الذي لقي وجه ربه في ذكرى المولد الشريف ، وفي اليوم الأخير من العزاء بوالده الراحل .

إن هذا الجيل الذي نسج رايات الانتفاضة الأول هو الذي بذر الدم في الأرض في جنوبي لبنان وفلسطين لزمان جديد تتواصل فيه المقاومة ، ويتقدم الشباب إلى دور أكبر في قيادة الزحف العظيم على الطريق لتحرير القدس . إن شهداء الانتفاضة الأولى ، وحزب الله ، هم طلائع المدّ الكبير الذي عشناه في

انتفاضة الأقصى ، ويا للتاريخ إذ تتخضب صفحاته بدمائهم ، وأولئك هم يملأون وجدان الأمة بزمن التحول الذي صاغوه في الثمانينيات ، بدمائهم : عصام أبوخليفة ، وجمال عودة ، وحمدان النجّار ، وياسين الشخشير ، وصبحي شكارنة ، وسامر مرعي ، وأيمن المحتسب ، . . ومئات من الخالدين على الدرب الطويل(١) .

وبين هدوء الانتفاضة الأولى بعد مؤتمر مدريد ١٩٩١ ، وانطلاق انتفاضة الأقصى سنة ٢٠٠٠ ، ظل الفتية القابضون على خارطة فلسطين من النهر إلى البحر على موعد مع الشهادة ، ولم تتوقف العمليات الاستشهادية على مدى التسعينيات ، وقدّمت جيلاً من القادة الشباب بمفاهيم جديدة لحرب التحرير الشعبية ، وبوضوح حاسم في الرؤية لطبيعة الصراع ، وبالتطور النوعي في عدد العمليات العسكرية التي حملت صوراً بهية من التضحية تزامنت مع تضحيات رفاقهم في جنوبي لبنان ، وقد ترسّخ شعار كتائب عز الدين القسّام : «إنّه لجهاد ؛ نصرٌ أو استشهاد» (٢) .

---

(١) انظر في التفاصيل : حافظ الكرمي ، **الطيور الخضر ، نماذج مضيئة من شهداء الانتفاضة المباركة في فلسطين** ، جـ١ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٠ .

(٢) انظر غسان دوعر : **موعد مع الشاباك ؛ دراسة في النشاطات العسكرية لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام ١٩٩٣** ، ط١ ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٥ .

ونقرأ دفتر عام ١٩٩٣ وصفحات الشهداء فيه كثيرة ، ونقف عند صورة من التضحية الخالدة رسم خطوطها وكلامها فتية منهم : أيمن صلاح عطا الله ، وبهاء النجار ، وسليمان مصطفى زيدان ، وسلامة أحمد يوسف ، وأسامة حمدي حميد ، وهم الذين نفّذوا عمليات استشهادية بينما قام رفاقهم بالتصدي بوسائل وطرق مختلفة ، ومعارك ضارية حتى لحقوا بالشهداء والصديقين .

وتطل انتفاضة الأقصى والدنيا ما تزال على حالها ؛ تحوّلاتها صعبة ، وسلامها مخادع ، فيصل الشباب أرواحهم بجذورها في الانتفاضة الأولى ، بل يلتفتون نحو جنوبي لبنان ، فإذا رايات النصر طالعة من دم الفتية الاستشهاديين عبر دروب الجنوب وجباله وسهوله ، فيكون على محمد الدرة ، ومحمد نبيل داود ، وصلاح فوزي نجم ، والشقيقين بلال رشاد نمر صلاح ، وهلال رشاد نمر صلاح ، وفارس عودة ووفاء ادريس أن يحفظوا الراية عالية ، وأن يجعلوا صوت النداء الخالد في القدس حاضراً عند كل صلاة أن «الله أكبر» «الله أكبر» .

إن صورة محمد الدرة ستظل نداء خالداً في وجدان الأمة التي تقرأ كتاب الأقصى صباح مساء ، وستظل صورة يوسف طبنجة تعلمنا الحزن وهو في العاشرة بعد ، يتبع جنازة شقيقه الشهيد سامر ابن الثانية عشرة جافياً ويرجو المشيعين أن يعيدوا أخاه إلى البيت . ومثلها صورة فاذي الخشني ابن السنوات العشر

وهو يلقي بنفسه على صدر أمّه باكياً أخاه الشهيد إياد ، وسيظل يبحث عنه حتى يخرج من هذا الألم العظيم نصرٌ قادم وتحرير عظيم .

في هذا المناخ العابق بالطهر والشهادة سنقرأ عن شهداء كثيرين في انتفاضة الأقصى ، وسنرى شادي أبودقة ، ابن السادسة عشرة ، وهو يتسلق برجاً مهجوراً لجيش الأعداء وينتزع علمهم والنار تملأ الفضاء حوله ، لكنه يصل إلى العلم ويمزّقه ، فالمعركة منذ زمن مؤتة حتى اليوم لها شعار واحد : أن لا راية تعلو سماء أرض الأمة إلا راية الفتح الأول في مؤتة . وسنرى الشهداء جهاد العالول ، وصلاح الفقيه ، وحاتم النجار ، وشريف عاشور ، ومصطفى فرارجة ، وإياد اشتيه ، وإبراهيم رزق عمر ، وأحمد سلمان أبوتايه ، ووجدي الحطاب ، وماهر الصعيدي ، ومحمود العمواسي الذي استشهد في اليوم الرابع لزفافه ، وعدنان دويكات ، ونمر مرعي الشهيد في ذكرى الإسراء والمعراج ، . . وغيرهم ممن ذهبوا إلى ساحات المعارك ، وتحملوا عنف جيش العدو وإرهابه ، ونازيته ، حتى تظل فلسطين فلسطين[1] .

إن قادة من جيل الشباب هم الذين رسموا معالم هذا الطريق

(١) انظر انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠ ، قصص دامية وحكايات الشهداء ، ط١ ، دار الجليل ، عمان ، ٢٠٠١ .

النبيل ، ولعل الإشارة إلى اثنين منهم لا تكفي إلا إذا قلنا إنها تكريم للنموذج الجديد ، خاصة وقد صدر عن كل منهما دراسات توثيقية تسعف في رسم ملامح مسيرة كل منهما بإيجاز ، كما التفت إليهما الأدباء والكتاب وجعلوا منهما رمزين كبيرين في هذه السنوات العجاف .

الشهيد الأول هو عماد عقل ، وقد صار «أسطورة غزّة» وهو الذي رحل في الرابعة والعشرين ، وكان قد حضر انطلاقة الانتفاضة الأولى ، واستمر هو وشقيقه عادل بين ساحات المعارك وسجون الاحتلال يناضلان ، وقد اختار راية كتائب عز الدين القسام شارةً للروح ، والدنيا تبدأ عقد التسعينات وتقلباتها ، وغبار سياستها الذي أعمى البصائر والعيون . خاض عماد عقل مواجهات شرسة ، وتعمقت خبرته بالنضال ، فصار ضابطاً لمجموعة الشهداء ، وهي الأولى في المنطقة الشمالية من قطاع غزة سنة ١٩٩١ ، وقد بدأت نشاطها بتتبع الخونة الذين سقطوا في مستنقع العمالة للأعداء ، ثم ما لبث أن صار مطارداً مطلوباً ، وعدد الرفاق محدود ، والعدو يضيّق على الناس وعليهم ، والسلاح في أيديهم عزيز ، حتى طلبت إليهم قيادتهم الالتحاق برفاقهم في الضفة الغربية سنة ١٩٩٢ حيث يواجهون العدو ، ويتجملون بالصبر والسلاح وهم يقاتلونه في القدس والخليل ، أو يتعرضون للاعتقال والسجن والتعذيب ، أو ينتقلون عبر الدروب الصعبة بين الضفة الغربية وقطاع غزة حيث نفّذ عماد عقل اثنتي

عشرة عملية بين نيسان ١٩٩٢ وتشرين الأول ١٩٩٣ .

وتظل هذه الروح المؤمنة صامدة في فتوتها وعنفوانها ، حتى ترجل في ١٩٩٣/١١/٢٤ ويده على زناد سلاحه ، بعد مطاردة شرسة من جيش الاحتلال في حي الشجاعية ، قال عماد عقل عندما أحسّ بقوات العدو تحاصر موقعه : «حضر الآن موعد استشهادي» ، فانطلق بعد أن غطى انسحاب رفاقه ، يطلق النار على جنود الاحتلال وهو ينتقل من مكان إلى آخر ، ثم صعد إلى سطح المنزل وصلى ركعتين لله تعالى ، وأصابته في هذه الأثناء رصاصة في ساقه فقفز من أعلى المنزل باتجاه الأرض ، وتبادل إطلاق النار مع الأعداء حتى فاز بالشهادة بعد أن أصابته قذيفة مضادة للدروع[١] .

أما يحيى عيّاش ، المهندس الشهيد ، فقد غدا رمزاً للقادة الشباب حتى قال فيه الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي :

«لقد كان يحيى من ذلك الصنف الذي وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ ، وهو كان غيظاً لليهود في حياته ، وكان وسيظل دمه

---

(١) انظر في سيرته : غسان دوعر ، **عماد عقل ، إسطورة الجهاد والمقاومة** ، ط٢ منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٤ .

نقمة عليهم بعد مماته»[1] .

ويحيى عياش بطل نموذجي في عمره وثقافته واستشهاده فهو ، بعد عماد عقل ، في موقع متقدم من جيل القادة الشباب ، يضاف إلى هذا أنه متخصص في الهندسة التي ذهب إليها بعد أن حصل على الثانوية العامة بمعدل متميز مع ملاحظة تفوقه في الفيزياء والرياضيات ، مما جعل كليات الهندسة في الأردن وفلسطين متاحة له ، لكنه التحق بجامعة بيرزيت ، وحصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية في فترة كانت فيها الجامعة تعطّل بأمر الحاكم العسكري وتغلق ، معاقبة لها على دورها الوطني وتخريجها للكوادر القيادية .

تخرج يحيى عيّاش عام ١٩٩٢ ولم يحضر مراسم التخرج لأنه كان مطارداً من جهاز الشاباك الصهيوني ، فقد كان خياره واضحاً قبل هذا في إطار الكتلة الإسلامية في جامعة بير زيت منذ سنوات ، حين كانت الانتفاضة الأولى في ذروتها . وقد شهد يحيى عيّاش استشهاد زملاء له في مواجهات مع العدو ، وخاض تجربة عميقة في النضال العلني والسري مما جعل وعيه الثوري

---

(١) انظر مقدمة د . القرضاوي لكتاب غسّان دوعر ، المهندس ؛ **الشهيد يحيى عياش رمز الجهاد وقائد المقاومة في فلسطين** ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ١٩٩٧ ، ص ٧ .

مؤذنا بقدراته القيادية ، خاصة حين صار من أبناء كتائب عزالدين القسام وهم يطرقون المستقبل بأرواحهم الطاهرة . وقد واصل يحيى دوره باحثاً عن النصر أو الشهادة ، مدركاً أنه مطلوب لأجهزة العدو كلها ، مستنداً إلى صمته وسرّية عمله مع رفاقه ، منفّذاً معهم بعضاً من أجرأ العمليات الاستشهادية دفاعاً عن الشعب ، وانتقاماً للأبرياء الذين راحوا ضحايا للمذابح الإسرائيلية في الحرم الإبراهيمي الشريف وغيره من مساجد فلسطين وقراها ومدنها ، وعندما انتقل إلى غزة كانت أخباره تدخل في باب الأسطورة التي يعززها الناس بأشواقهم إلى الحرية والحرب معاً ، في زمن السلام الذي لم يتكشف إلا عن المزيد من العنف العنصري الصهيوني والخداع الغربي .

لقد شكلت مرحلة يحيى عيّاش تصعيداً باهراً في أرواح أبناء فلسطين والأمة نحو استحكام الإيمان بفعل الشهادة باعتبارها الخيار الأسمى للحياة ، وامتد ظل الشهيد الشيخ عزالدين القسام عبر كتائبه ، ومن خلال هذا القائد القسّامي الشاب الذي ظل مطارداً في عدد من السنوات السياسية الصعبة في فلسطين والمنطقة ، حتى حقّ له أن يقول ، أو يقال عنه ، «وسوى الروم خلف ظهرك روم» كما قال المتنبي لسيف الدولة . . وقد توقع السهم من أمامه وهو يواجه العدو مقبلاً غير مدبر ، لكن سهاماً جاءته من الخلف ، وشاية ، وخيانة ، ونذالة ، من الذين دبّروا مع أجهزة العدو مقتله عبر هاتف نقال . . فيلقى وجه ربه شهيداً ،

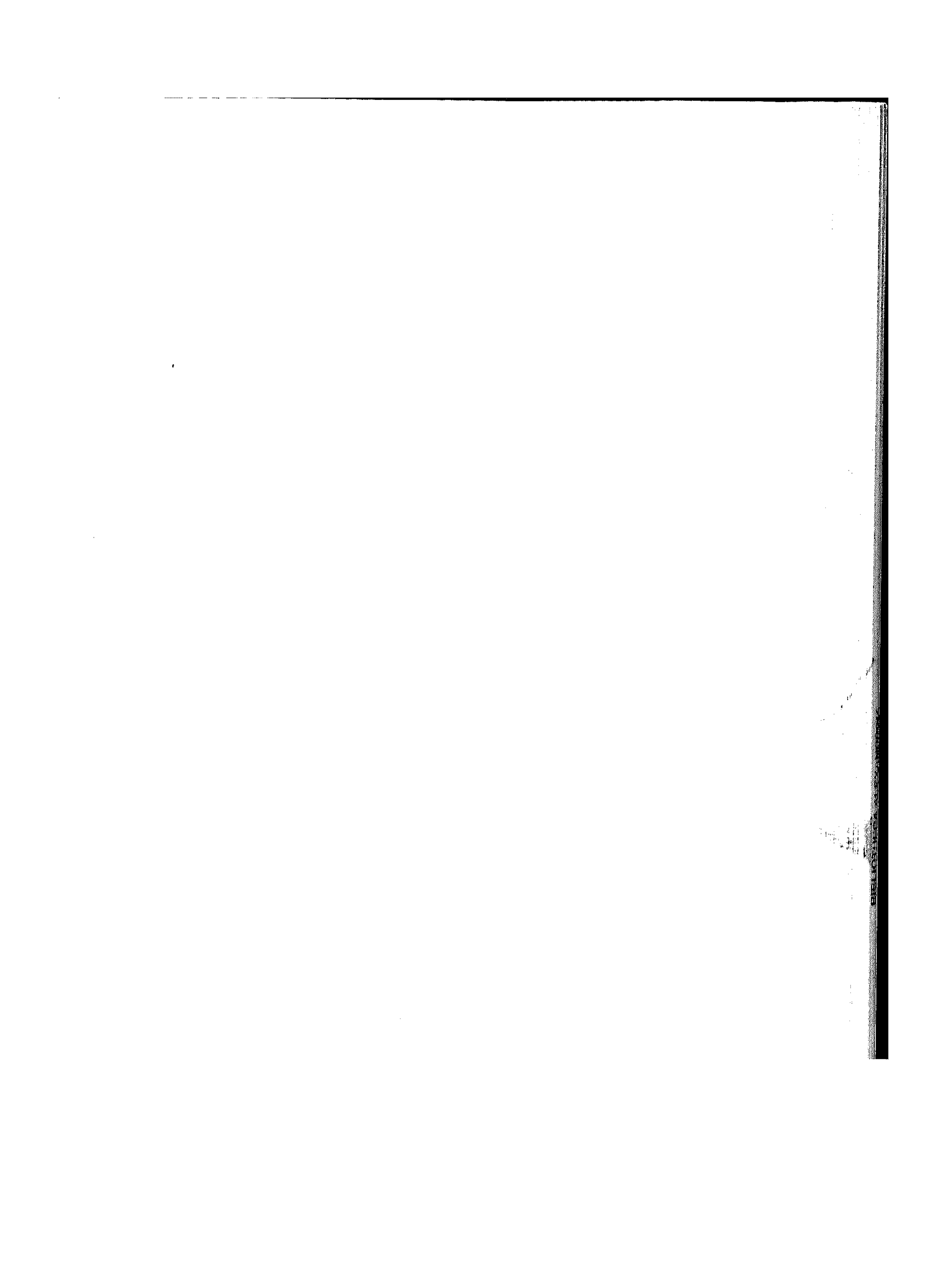
ويظل حاضراً رمزاً ومعلماً عبر الزمان القادم البعيد ، حتى تطلّ الأمة على القدس كما أطلّ عليها الفاروق وصلاح الدين .

لقد اقترب يحيى من نور الشهادة عبر مسيرة حياته ، بل عاشها إيماناً ، وتمناها قبل أن ينالها بزمن طويل ، ولكن يوم الجمعة الخامس من كانون الثاني ١٩٩٦ كان موعده معها ليبدأ رفاقه مسيرة انتقامهم الكبير له ، وجنازته المهيبة تتقدم الهوينا على وقع نداءات فلسطين كلها بأن الله أكبر ، وأن فتاها المهندس باقٍ في الضمائر والتاريخ وأجيال المستقبل وكتائب الإمام الشهيد عزالدّين القسام[1] .

---

(١) انظر الدراسة القيمة لغسان دوعر/**المرجع السابق** ، وكتاب مخلص يحيى برزق **فضائل الشهيد يحيى عياش** ، ط١ منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ٢٠٠١ .

أما بعد



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

صدق الله العظيم

(الأنفال)

يبـدو واضـحـاً أننا في هذا السـيـاق نتـحـدث عن حـالات «استـشـهـادية» خـاصـة ، في الحالات القـيـادية من أبناء الأمـة ، ونبـتـعـد قليـلا عن الآلاف المؤلفـة من شـهـداء معـارك الأمـة في سـبـيـل إعـلاء كلمـة الله جنوداً ومـدنيين وعـسكريين ، . . إن مصطلح «الاستشهاديين» يبدو ذا صلة «بالفرد» الذي يختار في لحظة انحسـار الجهـاد والجيـوش المقاتلة أن ينقش على صفحات التاريخ حالات نادرة من المواجهة ، تتجاوز مصطلحات «البطولة» و «التضحية» و «الفداء» ، وتقف عند الحد الفاصل بين أمة تراه شـهـيـداً ، وعـدو يراه منتحراً ؛ بين الوقوف في صف «المقـاومـة» المشروعة كما يراه التاريخ المنصف ، وبين «الإرهاب» الذي يسمه به إرهابيو هذا الزمان من صهاينة ومستعمرين وخائفين .

إن المقاومة العربية ضد الاستعمار (والجزائر نموذجها الأعلى) جهاد مشروع ، ولا ننفي شرعية المقاومة الروسية والفرنسية ضد النازيين ، والمقاومة الفيتنامية ضد الأمريكيين ، وأشد الأمم شراً هي التي تتردد في خوض حرب مشروعة . . حتى لو تفوق العدو ، ورمى الكهّان بالنبأ الذي جاءوا به إلى المعتصم حول موعد فتح عمورية ، فصرخ بهم أبو تمام : إنكم كاذبون وكان الفتح العظيم لأن السيف أصدق ، وهو سيف في يد مؤمن قال فيه أبو تمام :

تَدْبِيْـرُ مُـعْـتَـصِم باللّه مُنتَـقِم
لِلّهِ مُـرْتَقِبٍ فِي اللّهِ مُـرْتَغِبِ

فهل يواصل كهان السياسة العربية إحباط الهمم والعزائم . . إنه لا حقّ للذين لا يقاتلون أن ينصحوا الذين اختاروا المواجهة كما اختارها رجال يمتدون شهداء في تاريخنا منذ زمن بعيد كريم .

إن العمل الفدائي صورة إنسانية باهرة في النضال ضد الغزاة والمستعمرين ، وهو فعل شعبي عفوي ، أو منظم ، ضد سطوة الغاصب ؛ وهو طاقة هائلة مستمدة من الإيمان حين يستحكم في لحظة يجد الإنسان فيها طعم الموت المرّ حلواً ، وأن لا خيار أمامه سوى أن يواجه العدو ، يصده أو يقتله أو يزلزل الأرض تحت أقدامه . . إنه الفتى الذي يتقدم حتى «يغمس يده في العدو حاسراً» ويثبت حتى يقتل . . ألم يلق البراء بن مالك بنفسه بين صفوف المرتدين من بني حنيفة ويقاتلهم . . بل قيل إنه هو الذي حمله المقاتلون المسلمون على ترس على أسنة رماحهم وألقوا به في الحديقة فاقتحم اليهم ، وشد عليهم ، وقاتل حتى فتح باب «الحديقة» ، وجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحاً .

إنهم هم الذين قاتلوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر وأحد ، وهم الذين أرهبوا العدو بإقدامهم ، وقد قيل لأبي هريرة ألم تر أن هشام بن عامر الأنصاري لما التقى الجمعان (في أحد) فقاتل حتى قتل ، وألقى بيده إلى التهلكة؟ فقال «كلا ولكنه تأول آية في كتاب الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة ٢٠٧) .

وفي رواية أن عمر بن الخطاب وأبا هريرة ، هما صاحبا هذا الرد .

إنني لست بصدد فحص الفتاوى التي تدافعت عبر الإعلام في السنوات الأخيرة ، فأنا أتحدث عن القادة الشهداء ، وقد مال الحديث إلى أصحاب «الخلق الوعر» منهم ، وأنا مطمئن إلى أن الشعوب تقاتل جيوشاً ، وجماعات ، وأفراداً ، وأن الإلقاء في التهلكة اليوم هو ترك الجهاد ، وأن الغاية في النية ، والهدف أن يهزم هذا العدو ، وأن تتحرر أرضنا من رجسه ، وأن نوجعه كما أوجعنا ، وحين تغيب الوسائل المنظمة ، والقيادة الواحدة للأمة ، فهل علينا أن نؤجل الجهاد؟ إن لنا في ثورة الجزائر ؛ علمائها ، وشهدائها ، نموذجاً إسلامياً عظيماً تلتقي جذوره بالشجر البعيد في التاريخ العظيم لأمتنا المقاتلة ، ونرى اليوم أعظم تجلياته في تحرير جنوبي لبنان ، وفي انتفاضة الأقصى ، وفي جراح أبنائنا من الخليل إلى ذرى بلاد الشيشان .

إن الذين اختاروا الاستشهاد في سبيل الله ، حتى لو بدت صورة المعركة غير ما يتمنون ، هم أصحاب الإرادة ، وهم المؤمنون بالله وبما أنزله إيماناً يملك عليهم نفوسهم ، وهم الأبطال الذين اكتملت أحاسيسهم الإنسانية وتجاوزوا حدود الإحساس بالوجع ، ولعلّ الرؤية في تلك اللحظات النادرة قد كشفت لهم عن إشراقات تجعل أرواحهم غير مهمة أمام مايرون . . فيتركّز وعيهم على تلك اللحظة ، أو الصورة ، أو الجنة ، وهم يندفعون مقتربين

من ذلك الخط الفاصل بيننا نحن الذي نظل وراءهم ، وبين العالم الجديد الذي يبحرون فيه . إنّها لحظة الموت عند الآخرين لكنها لحظة الشهادة الخالدة وساعة السموّ التي يتقدم فيها الشهيد بإرادته ووعيه لتحقيق هدفه المقدس ، وهو الدفاع عن الإسلام . . سواء أكان ذلك قتالاً للعدو ، أو تعرضاً للتعذيب والتنكيل كما وقع لسميّة وياسر ، أو وقوفاً في وجه الاستعمار والاحتلال بأشكالهما كلّها ، أو ردّاً لمنكر لم يرتدع من أخذته العزة بالإثم عن إعلانه والتمادي فيه . . إنها رؤيةٌ ، فاختيارٌ ، فكشفٌ نورانيٌ مقدس . . وهي لحظة القدرة على الصعود إلى ذروة التسامي والانتصار . . التسامي نحو الخلود ؛ والانتصار على الحياة التي تطول أحياناً حتى تبعث على السأم إن كانت دون غاية[1] .

وقد ثارت أسئلة حول موضوع انغماس المقاتل الشجاع والجماعة القليلة في العدو الكثير رغبة في الشهادة ونكاية بالعدو ، وقد فصّل صاحب مشارع الأشواق في هذا الموضوع ، واتكأ على قوله تعالى :

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

(البقرة)

---

(١) انظر الدراسة المتميزة للشيخ حسن خالد : **الشهيد في الإسلام** ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١ .

وقوله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

(البقرة)

وقد حسم عمر بن الخطاب الأمر في هذا الانغماس عندما ردّ حين قيل له على من زعموا أن بعض الناس يخاطر فيلقي بنفسه إلى التهلكة ، فقال : إنّه ممن اشترى الآخرة بالدنيا[١] .

وأورد ابن النحاس أمثلة كثيرة منها قصة رجل أنصاري لقي كتيبة من الكفار فحمل عليهم ، فخرق الصف حتى خرج ، ثم كرّ راجعاً ، صنع ذلك مرتين أو ثلاثاً[٢] .

وقد ردّ أبو أيوب الأنصاري على الذين رأوا رجلاً من المسلمين يحمل على صف الروم حتى دخل بينهم ، أنه يلقي بيده إلى التهلكة فقال : إن الآية نزلت في الأنصار حين قال بعضهم لبعض : إن أموالنا ضاعت ، وأن الله قد أعزّ الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها[٣] .

---

(١) مشارع الأشواق ، ص١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

وروى قصة أنس بن النضر الذي غاب عن قتال بدر ، وتقدم في أحد مقاتلاً حين انكشف المسلمون ، وهو يقول لسعد ابن معاذ : الجنة وربِّ النضر ، إني أجد ريحها دون أُحد ، وعندما انتهت المعركة وجدوا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووُجد وقد مَثَّلَ به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه[1] .

إن الفارس الذي غلب على ظنّه أنه يُقتل ، سيحمل على الجمع الكثير من العدو ، وهو عارف أنه يطلب الشهادة هنا ، ويرد السؤال ، أليس الاندفاع العظيم في الفتح مع اختلال التوازن العددي (مع الروم والفرس والإسبان) إشارة إلى هذه الروح الاستشهادية التي اندفعت بها جيوش الإسلام خلف قيادتها (خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وطارق بن زياد) حتى زرعت لواء الإسلام فوق دنيا ذلك الزمان كلها!! وقد استمرت الروح نفسها في ملاذكرد ، والزلاّقة ، وحطين ، وعين جالوت ، وقد ظلت صرخة قطز العظيمة «واإسلاماه» تتمة لصرخة خالد بن الوليد في حروب أهل الردة «وامحمداه» ، وصرخة السيدة العربية في عمورية «وامعتصماه» ، بل نتذكر ربعي بن عامر ، رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم في القادسية ، وقد دخل

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩١ . وانظر قصة انغماس سلمة بن الأكوع في جيش العدو ١٩٢-١٩٣ وقصة بُسْر بن أرطاة ص ١٩٦-١٩٧ .

على قائد الفرس في ثياب صفيقة ، فوق فرس قصيرة ، ولا يزال راكبها حتى يدوس بها على طرف البساط ، ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد ، ويقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته فوق رأسه ليرد على من صاح به أن يلقي السلاح : «إنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا رجعت» . ثم يتوكأ على رمحه فوق النمارق وعندما سئل : ما جاء بكم؟ دوّى صوته : «الله .. ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(1) .

ولعلي ، إذْ أستعيدُ وصف أحد الخوارج لأصحابه ، أجد الصورة التي يكون عليها الفرد المؤمن وهو يندفع شهيداً في سبيل الله :

وهمُ الأسودُ لدى العرين بسالةً
ومَن الخشوع كأنّهم أحبارُ
يمضُون قد كسُروا الجفونَ إلى الوغى
متبسمينَ وفيهمُ استبشارُ
فكأنّما اعداؤُهم أحبابُهم
فرحاً إذا خطرَ القنا الخطّارُ

(1) انظر : النعمان عبد المتعال القاضي ، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٦-٣٧ .

يردونَ حــومــاتِ الحِــمــام وإنّهــا
تاللّهِ عِنــد نفــوسِــهم لصــغــارُ[1]

ويروي ابن النحاس حكاية ذات دلالات في هذا الإطار الذي يعود الحوار حوله في أول القرن الحادي والعشرين ، وينتصر فيه الذين يرون أن العمليات الاستشهادية هي من جوهر الجهاد في الإسلام ،

تقول الحكاية :

«أخرج محمد بن جرير الطبري أن عبدالوهاب بن بخت غزا مع أبي محمد البطّال الروم ، وحمل المسلمون على الروم فانكشفوا ، فصار عبدالوهاب يكُرُّ فرسه للمعركة ، وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي إن لم اسفك دمك .

ثم ألقى بيضة على رأسه ، وصاح : أنا عبدالوهاب بن بخت . أمن الجنّة تفرون . وتقدم في نحور العدو مهاجماً .

فمر رجل عطشان وهو يقول : واعطشاه!

ودخل ابن بخت في القوم ، وانغمس فيهم ، فقتل ، وقُتِل فرسه معه[2] .

(١) انظر د . أحمد معيطة ، **الإسلام الخوارجي ، قراءة في الفكر والفن ونصوص مختارة** ، ط١ ، دار الحوار ، اللاذقية ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٥ .

(٢) **مشارع الأشواق** ، ص ٢٠٣ . وانظر الفصل الذي عقده حول آراء العلماء في حمل الرجل وحده على العدو الكثير .

إنّه دم الفتية الذين يندفعون لكسر شوكة الكفار بجرأتهم ، ويتقدمون دون أن يساورهم خوف من القتل لأنهم مشتاقون للشهادة ، وهم أصحاب نيّة خالصة سواء في النجاة ، أو الشهادة ، أو النكاية بالعدو ، أو رفع معنويات المسلمين ، وإثبات قدرة المقاتل المسلم على بث الرعب في صفوف العدو . إن دمهم الذي يختلط بالثرى سيطلع في شقائق النعمان ، وحكايات البطولة ، وسحر الزمان القادم بالنصر من جديد .

إنها الحالة الخاصة أو «منطق الشهيد» كما يسميها الشهيد مرتضى مطّهري إذ يقول :

«وللشهيد منطق خاص . . إنه «منطق الشهيد» الذي لا يمكن قياسه بمنطق الأفراد العاديين . فمنطق الشهيد أسمى ، إنّه مزيج من منطق المصلح ومنطق العاشق . . منطق المصلح الذي يتضّور قلبه ألماً لمجتمعه ، ومنطق العارف العاشق للقاء ربه . . بعبارة أخرى ، لو امتزجت مشاعر عارف عاشق للذات الإلهية بمنطق إنسان مصلح لنتج عن ذلك «منطق الشهيد»[1] .

إنه منطق نابع من رسالة أمة خيّرة في حربها وسلمِها وحضورها وإن كره الحاقدون ذلك ، وهي إذ تدفع بأبنائها إلى ذرى

---

(١) انظر كتابه **شهيد يتحدث عن شهيد** ، دار التوجيه الإسلامي ، بيروت ، ص٤١ .

العلم المعرفة حيناً ، وإلى ذرى صروح الشهادة وجنانها في أحيان أخرى ، فإنما تفعل ذلك كي تحمي وجودها من خطر المنافقين والحاقدين والأعداء الذين يتربصون بها ، من هنا نعيد ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية عن واجب الشهادة على المسلم حتى في أشدّ الظروف صعوبة :

«فإن الأئمة متفقون على أنّ الكفّار لو تترّسوا بمسلمين وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا ؛ فإنه يجوز أن نرميهم ونقصد الكفّار . ولو لم نخف على المسلمين جاز رمي أولئك المسلمين أيضاً في أحد قولي العلماء . ومن قتل لأجل الجهاد الذي أمر به الله ورسوله -هو في الباطن مظلوم- كان شهيداً ، وبعث على نيّته . ولم يكن قتله أعظم فساداً من قتل من يقتل من المؤمنين المجاهدين»[1] .

وقد أضاف إلى هذا قوله :

« . . . ولهذا جوّز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صفّ الكفّار ، وإن غلب على ظنّه أنهم يقتلونه ؛ إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين»[2] .

---

(١) ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ، **مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية** ، ط١ ، مطابع الرياض ، ١٣٨٣هـ ، ٥٣٧-٥٣٧/٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤٠ .

إن منطق الشهيد يتشكل إيماناً وقراراً واختياراً وهو يتقدم نحو الموت غير عابئ به ، لأنه ذاهب إلى الشهادة لا إلى الموت ، والصورة التالية شواهد وأمثلة على كمال الرؤية ، ووضوح القرار ، ومنطق الشهادة لا الموت :

الأولى :

. . . روى محمد بن سعد عن أبيه قال :

«رأيت أخي عمير بن أبي وقاص ، قبل أن يعرضنا رسول الله يوم بدر ، يتوارى فقلت : مالك يا أخي؟ قال : إني أخاف أن يراني رسول الله ؛ فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة . قال : فعرض على رسول الله ؛ فاستصغره فردّه ، فبكى ، فأجازه ، فكان سعد يقول : كنت أعقد حمائل سيفه من صغره ، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة»[1] .

الثانية

روى ابن جرير الطبري في التفسير عن ابن شهاب الزهري قال :

«خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد سقطت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : قد استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم أتمكن من الحرب والقتال كثّرت عدد المسلمين وسوادهم ،

---

(١) الإصابة ، ٣/٣٥-٣٦ .

وحفظت المتاع» [1] .

الثالثة

حدّث من مرّ يوم الجسر ، يوم أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، برجل قد قطعت يداه ورجلاه وهو يقول : «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحُسن أولئك رفيقا» . فقال بعض من مرّ عليه : من أنت؟ فقال : أنا امرؤ أنصاري . . [2]

الرابعة

«مرّ أنس بن مالك يوم اليمامة بثابت بن قيس بن شماس وهو يتحنّط ، فقلت : يا عم ؛ ألا ترى ما يلقى المسلمون ، وأنت ها هنا! قال : فتبسم ثم قال : الآن يا ابن أخي . فلبس سلاحه ، وركب فرسه حتى أتى الصف ، فقال : أف لهؤلاء وما يصنعون . وقال للعدو : أف لهؤلاء وما يعبدون . خلّوا عن سبيله ؟-يعني

(١) مشارع الأشواق ، ص ٣٣ .

(٢) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، ص ١٣٣ .

فرسه- حتى أصْلى بحرّها . فحمل ، فقاتل حتى قتل[1] .

الخامسة

روى أبوبكر بن عبدالله بن قيس قال : سمعت أبي يقول وهو بحضرة العدو ، قال رسول الله ؟ : إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف . فقام رجل رثّ الهيئة فقال : يا أبا موسى! أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله؟ قال : نعم . قال : فجاء إلى أصحابه ، فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جَفْن سيفه ، فألقاه ، ثم مضى بسيفه قدماً ، يضرب به حتى قتل»[2] .

السادسة

وهي صورة من معركة الزلاّقة الخالدة (٤٧٩هـ) يوم اندفع يوسف بين تاشفين لإنقاذ الوطن الأندلسي ، وهي معركة تجلّت فيها فروسية أهل المغرب والأندلس ، وصمد المعتمد بن عبّاد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ، وفي اللسان ، الحنوط طيب يخلط للميت خاصة ، ويقال : استحنط فلان : اجترأ على الموت وهانت عليه الدنيا . وفي حديث ثابت بن قيس : وقد حسر عن فخذيه وهو يتحنط ، أي يستعمل الحنوط في ثيابه عند خروجه إلى القتال ، كأنه أراد به الاستعداد للموت وتوطين النفس بالصبر على القتال» اللسان : حنط) وانظر صحيح البخاري ج٢ ، كتاب الجهاد والسيّر ، إذ يورد خبر ثابت بن قيس في باب «التحنط عند القتال» .

(٢) ابن المبارك كتاب الجهاد ، ص ١٨٧-١٨٨ .

وأثخن جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في إحدى جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً . . ولكنه ظلّ صابراً حتى وصلت قوات ابن تاشفين إلى ساحة المعركة لتتحد القوة الإسلامية في معركة ظافرة[1] .

وفي معركة الزلاّقة رواية لطيفة تقول إنّه حين كان الجيش الإسلامي على أهبة واحتراس ليلة المعركة «انتبه الفقيه أبو العبّاس أحمد بن رميلة القرطبي- وكان في معسكر ابن عبّاد- فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم فبشّره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرّع ودهن رأسه وتطيّب» . .[2]

ثم يسرد المؤرخون أخبار الانتصار الكبير وفيها استشهاد جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة

---

(١) المقّري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٣٦٦/٤ . وعن معركة الأرك المشهورة في زمن الموحدين بالأندلس سنة ٥٩١هـ انظر ص ٣٨١-٣٨٢ . ثم كانت وقعة العقاب المشؤومة سنة ٦٠٩هـ . أنظر ص ٣٨٣ .

(٢) نفح الطيب ٣٦٥/٤ .

صاحب الرؤية المذكورة[1] .

السابعة

وحقها أن تكون في باب الحديث عن الأشقاء الشهداء ، وإن كان واحداً من شقيقين مقاتلين هو الذي سبق .

قال عمرو بن العاص لقوم فاضلوا بينه وبين أخيه هشام :

«إنّا أسلمنا ، فأحببنا رسول الله ﷺ وناصحناه . فذكر اليرموك ، فقال : أخذ بعمود الفسطاط حتى اغتسل وتحنّط وتكفّن ، ، ثم أخذ بعمود الفسطاط حتى اغتسلت وتحنطت وتكفنت ، ثم اعترضنا على الله تبارك وتعالى ، فقبله ، فهو خيرٌ مني . قبله ، فهو خير مني . قبله ، فهو خير مني»[2] .

إنهم إذن الفتية الذين زانهم الإيمان ، والخلق ، والعزم ، والحزم ، والتمرد ، والحلم ، وتقدموا صفوف الأمة ، وأحيوا روح الجهاد فيها ، وأصابوا العدو بالذعر ، وجرّعوه مرارات الهزائم ، وشكلوا وعياً جديداً يحفظ على الأمة صورتها / أمة الرسالة في زمن يتراخى فيه أهل السياسة ، ويتحول العالم إلى تابع لقوة واحدة وحشية ظالمة قاهرة ، إنّهم الذين يدافعون عن الإسلام العظيم ؛ عن رسالته وسماحته وصورته كما دافع أبو طلحة يوم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٩

(٢) ابن المبارك : كتاب الجهاد ، ص١٢١-١٢٢ .

أحد عن النبي ﷺ ، فقد تراجع الناس وهو بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام «مُجَوِّب عليه بحجفة له ، وكان أبو طلحة رامياً شديد النَّزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمرّ معه بجعبة من النبل ، فيقول : انثرها لأبي طلحة . قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي ، لا تشرف ، يُصبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرِكْ»(١) .

إنهم قادة الجماهير من الشباب الذين استجابوا لهذا النداء ، واندفعوا يقاتلون مقبلين على الموت حتى توهب للأمة الحياة ، وتظل راية الإسلام عالية كما كانت بين عضدي جعفر بن أبي طالب ، إنهم الفتية الملتزمون بالرسالة والتاريخ وتحرير الأرض ، والذين أدركوا بوعي مبكر متميز طبيعة الغزو الصهيوني الاستيطاني الذي يشكل قاعدة للخراب القادم من الغرب المتفرد بسلطة القوة والمال والإعلام . . الغرب الذي ظل يتذكر خطى جيش عبدالرحمن الغافقي على مسافة مئة ميل من باريس ، ووقوف أبي أيوب الأنصاري على بوابة القسطنطينية ، والعبور الإسلامي الهائل إلى النصر منذ أن قطع خالد بن الوليد الصحراء نحو اليرموك ، حتى عبر شباب مصر قناة السويس وهم يؤذنون باسم الله العلي العظيم ، . .

---

(١) صحيح البخاري ج٣ ، كتاب المغازي .

لقد عبرت الأمة إلى النصر جيوشاً ، وجماعات فدائية ، وجربت سائر أشكال النضال وهي تدافع عن نفسها ، وظلت تعلي روح الجهاد ولا تستسلم أبداً ، . . حتى لو ظل أفراد قليلون ، فإنهم يصبرون في المواجهة كتائب وقادة . . ويتقدمون ضد تيار الهزيمة والإحباط . . يتقدمون مواكب من فراس العجلوني إلى صالح الشويعر ، ومن مازن أبو غزالة وأبي يوسف النجار وكمال عدوان ، وكمال ناصر ، وغسان كنفاني ، إلى خليل الوزير ، ومن بلال فحص إلى يحيى عياش ، . . والعالم البعيد الظالم يعلن أنه مصاب بالرعب عند «الحدود الدموية للإسلام» كما يسميها صاحب صراع الحضارات صامويل هنتينغتون ، وهم يريدون عدواً جديداً يسوغون لشعوبهم من خلاله حروبهم وهيمنتهم .

إن هذه المحاولة لا تدعي فحصاً شاملاً . . وهذا مطلب يعز على ما ظل من العمر لو نذرناه له . . فرحلة الأمة مع الشهادة طويلة وبهية ، ومئات الآلاف من الشهداء القادة والجنود يعطرون الثرى من بدر إلى مؤتة واليرموك والقادسية فبلاط الشهداء فحطين فالكرامة وصولاً إلى الحرم الإبراهيمي وقانا والعامرية . .
إنها محاولة اعتذار عن تقصيري في عرض جوانبها الباهرة . . ، ولأقل إنني أكتب لأنحني احتراما للشهداء كلهم . . وسأفعل ، ونقرأ الفاتحة لأرواحهم . .

إنها سيرة الرسالة العظيمة والدم الطهور . . وهذه القراءة

طواف عشق حول أضرحة الشهداء ، وأولها صرح الشهيد ، ونصب شهداء الكرامة ، وعند الأسماء نخشع ونتذكر الملازم الشهيد خضر شكري يعقوب الذي أدى واجبه في ساعات معركة الكرامة الصعبة سنة ١٩٦٨ ، وحين حاصر العدو موقع الملاحظة الذي وجه منه الرماية الأردنية نادى عبر الجهاز على القيادة :

«طوق العدو موقعي . ارموا موقعي حالاً . حققت الشهادة في سبيل الله والله أكبر . .»(١)

وعند مقام كل شهيد ننادي . .

دمُكَ الطريقُ ومـا يزالُ بعيـداً
علّقْ برمحكَ فجرَنا الموعودا
دمُكَ الطريقُ ولو وقفنا مرّةً
في ظلّه كنّا الأباة الصِّيدا
دمُكَ الطريقُ ولو عَرفْنا قطرةً
من بأسهِ فَلَّ الحديدُ حديدًا(٢)

---

(١) معن أبو نوار ، **معركة الكرامة** ، ط٣ ، مطبعة القوات المسلحة الأردنية ، عمان ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣٦ .

(٢) من قصيدة لسليمان العيسى في الشهيد عمر المختار ، انظر : سليمان العيسى ، **الأعمال الكاملة** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ٢٠٢/٣ .

وعند صروح الشهداء نقرأ الفاتحة ، ونلقي السلام على أرواحهم ، ونعيد ما قالته السيدة والدة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي عند وفاته :

«سأضع سيفك في كفنك ،
وسيعرفك الله ، فأنت سيفه»[1]

---

(١) ورد هذا القول في كتاب جنفياف شوفيل ، **صلاح الدين بطل الإسلام** ، ترجمة جورج أبي صالح ، دار الأميرة ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ٤٤١ . وقد جعلته على غلاف الكتاب أيضاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

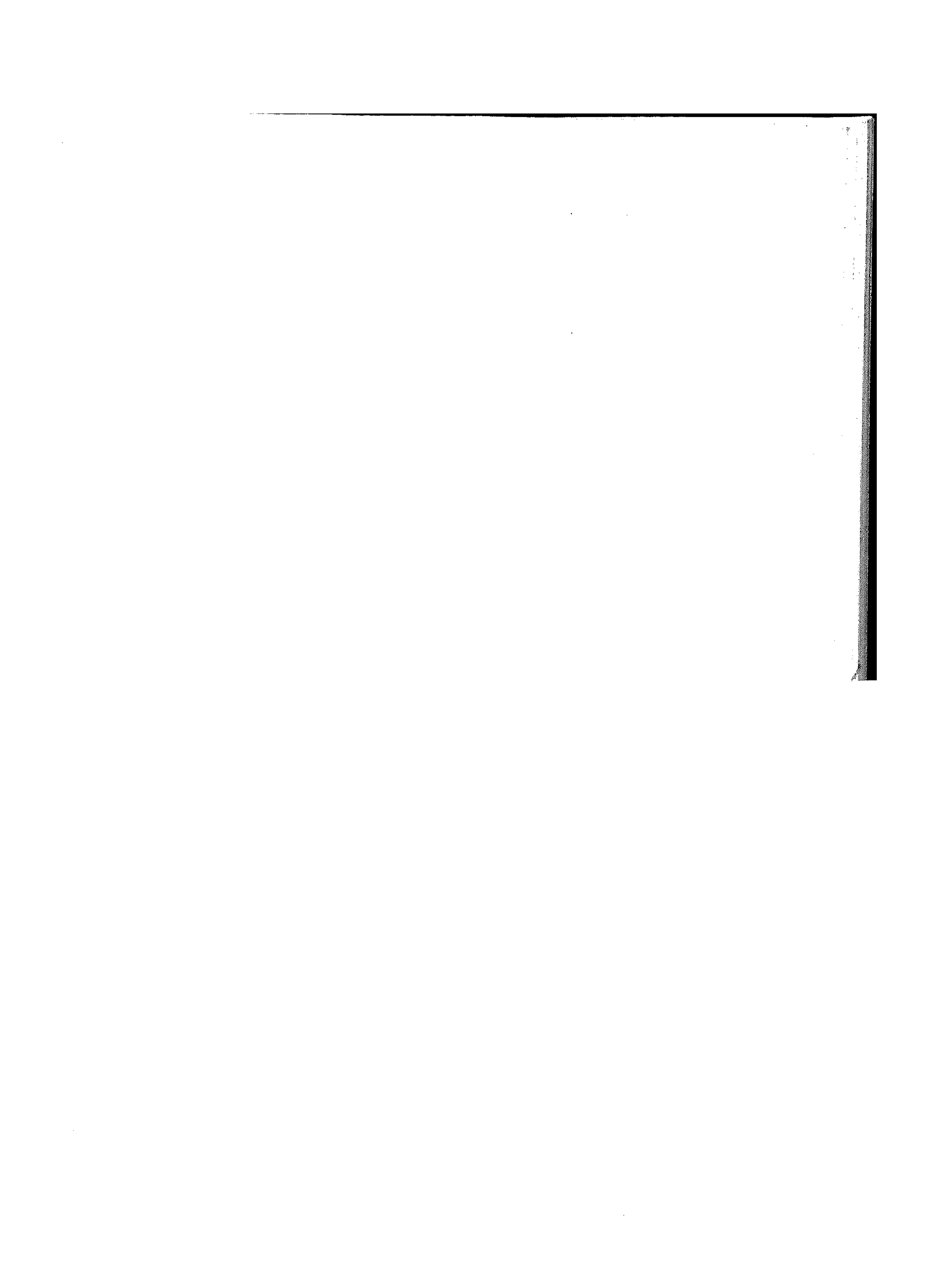
وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

(الضحى)



المصادر والمراجع



- القرآن الكريم .
- **آخر أيام غرناطة (نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر)** تحقيق محمد رضوان الداية ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق .
- إبراهيم الحيدري ، **تراجيديا كربلاء ، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي** ، ط١ ، دار الساقي ، بيروت ١٩٩٩ .
- ابن أبي زمنين ، أبوعبدالله محمد بن عبدالله ، **كتاب قدوة الغازي** ، دراسة وتحقيق عائشة السليمان ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- إحسان هندي ، **معركة ميسلون** ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٦ .
- أحمد توفيق المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢** ، وثائق ودراسات ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .
- أحمد الحوفي ، **البطولة والأبطال** ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .
- أحمد بن زيني دحلان ، **الفتوحات الإسلامية** ، الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

- أحمد شوقي ، **الشوقيات** ، دار الكتب العلمية ، بيروت
- أحمد عادل كمال ، **شهيد نهاوند ؛ النعمان بن مقرن المزني** ، عكاظ للنشر والتوزيع ، جدّة ، ١٩٨١ .
- أحمد معيطة ، **الإسلام الخوارجي ؛ قراءة في الفكر والفن ونصوص مختارة** ، ط١ ، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ٢٠٠٠ .
- أسامة بن منقذ ، **كتاب الاعتبار** ، حرره فيليب حتّي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ .
- أكرم زعيتر ، **بواكير النضال ؛ من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩-١٩٣٥ (١)** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- أكرم زعيتر ، **يوميات أكرم زعيتر ؛ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩** ، ط١ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- **انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠** ، الكتاب الأول ، ط١ ، إعداد دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ، عمان ، ٢٠٠١ .
- البخاري ، أبوعبدالله بن اسماعيل ، **صحيح البخاري** ، راجعه وصححه جمال عبيدة ، المكتبة العصرية ، صيدا-بيروت ، ١٩٩١ .
- بسام العسلي ، **عروس الجنوب** ، ط١ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٥ .

- بسام العسلي ، **المجاهدون الجزائريون** ، ط١ ، دار النفائس ، ١٩٨٤ .
- البلاذري ، ابو الحسن ، **فتوح البلدان** ، المكتبة التجارية الكبر ، القاهرة .
- **بيارق لا تسقط** ، **اللجنة الشعبية الأردنية لدعم الانتفاضة** ، عمّان ، ١٩٩٤ .
- **التحدي والتصدي ، توثيق عمليات جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية** ، ط١ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ .
- **التحدي والتصدي ، الشهداء العرب اللبنانيون في جنوب لبنان** ، ط١ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ١٩٨٨ .
- أبو تمام ، حبيب بن أوس ، **شرح ديوان أبي تمام** ، ضبط معانية وشروحه وأكملها إيليا حاوي ، ط١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ .
- توماس كارليل ، **كتاب الأبطال** ، ترجمة محمد السباعي ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ، **مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية** ، المجلد الثامن والعشرون ، ط١ ، مطابع الرياض ، ١٣٨٣هـ .
- جان الكسان ، **القائد والمعركة** ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٣ .

- جمال سليم الداموني ، **الشهادة والشهداء ؛ أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية** ، ط١ ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٩ .
- جمال الدين الألوسي ، **الجزائر بلد المليون شهيد** ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠ .
- جميل العلواني ، **نضال شعب وسجل خلود** ، ط١ ، مطبعة الآداب والعلوم ، دمشق ، ١٩٧٣ .
- جنفياف شوفيل ، **صلاح الدين بطل الإسلام** ، ترجمة جورج أبي صالح ، دار الأميرة ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج ، **صفوة الصفوة** ، تحقيق محمود فاخوري ، ومحمد روّاس قلعه جي ، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- الحافظ الذهبي ، **كتاب دول الإسلام** ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، قطر .
- حافظ الكرمي ، **الطيور الخضر ؛ نماذج مضيئة من شهداء الانتفاضة المباركة** ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ،
- ابن حجر العسقلاني ، **الإصابة في تمييز الصحابة** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٢٨هـ .
- حسن خالد ، **الشهيد في الإسلام** ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١ .
- حسين مؤنس ، **صور من البطولة** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

- حسين مروة ، **تراثنا كيف نعرفه** ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- حمدي لطفي ، **العسكرية المصرية فوق سيناء** ، دار الهلال ، القاهرة .
- خالد الكركي ، **حماسة الشهداء ؛ رؤية الشهادة والشهيد في الشعر العربي الحديث** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- خالد محمد خالد ، **رجال حول الرسول** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ابن خلكان ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت .
- خليل أحمد خليل ، **العقل في الإسلام ، بحث في حدود الشراكة بين العقل العلمي والعقل الديني** ، ط١ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- خير الدين الزركلي ، **الأعلام** ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- رسول حمزاتوف ، **بلدي** ، تعريب عبدالمعين ملوحّي ويوسف حلاّق ، ط١ ، دار الجماهير العربية (دمشق) ، ودار الفارابي (بيروت) ١٩٨٤ .
- زكي المحاسني ، **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة** ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ .

- زياد أبوغنيمة ، **مواقف بطولية من صنع الإسلام** ، عمّان ، ١٩٧٩ .
- ساطع الحصري ، **يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب الحديث** ، دار الاتحاد ، بيروت .
- سعيد العاص ، **استشهاد الأمير عزالدين والمعارك الأخيرة** ، ب ن ، ب .ت .
- ـــــــ ، **استشهاد البطل المبجل أحمد مريود** ، ب ن ، ب .ت .
- ـــــــ ، **صفحة من الأيام الحمراء ؛ مذكرات القائد سعيد العاص ١٨٨٩-١٩٣٦** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- سليمان العيسى ، **الأعمال الكاملة** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- سليمان موسى ، **أيام لا تنسى ؛ الأردن في حرب ١٩٤٨** ، مطابع القوات المسلحة ، عمّان ، ١٩٩٧ .
- سلوى العمد ، **الإمام الشهيد في التاريخ والإيدولوجيا ، شهيد الشيعة مقابل بطل السّنة** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- سميح عاطف الزين ، **معركة مؤتة** ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- سيد رضوان علي ، **محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية** ، ط١ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد المقدسي ، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** ، دار الجيل ، بيروت .
- ابن شدّاد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين** ، ط١ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ .
- شكري عيّاد ، **البطل في الأدب والأساطير** ، دارا لمعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- شكيب أرسلان ، **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- صبحي العمري ، **أوراق الثورة العربية (٣) : ميسلون ؛ نهاية عهد** ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ .
- ضيا باشا ، **الأندلس الذاهبة** ، تعريب عبدالرحمن ارشيدات ، وزارة الثقافة والإعلام ، عمّان ، ١٩٨٩ .
- الطبري ، محمد بن جرير ، **تاريخ الطبري** ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- ابن عبدالبر القرطبي ، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد ، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، تحقيق علي البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، القاهرة .
- ابن عبدالحكم ، **فتوح مصر والمغرب** ، القاهرة ، عبدالرحمن الجبرتي ، مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

- عبدالرحيم محمود ، **ديوان عبدالرحيم محمود** ، جمع وتقديم كامل السوافيري ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- عبدالسلام العشري ، **ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب** ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- عبدالعزيز السيد أحمد ، **عز الدين القسام رائد النضال القومي** ، ط١ ، أيام فلسطينية ، ١٩٧٧ .
- عبدالعزيز الشناوي ، **صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر** ، مطبعة دار الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- عبدالله العلايلي ، **سمّو المعنى في سمّو الذات أو أشعة من حياة الحسين** ، ط٤ ، دار الجديد ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- عبدالله عزام ، **عبر وبصائر للجهاد في العصر الحاضر** ، ط٢ ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمّان ، ١٩٨٧ .
- ابن عتبة الأصغر ، أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا ، **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب** ، ط١ ، وزارة الثقافة ، عمّان ، ١٩٩٥ .
- عدنان الملوحي ، **وعادت القنيطرة** ، ط١ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، **تاريخ ابن خلدون** ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- عدنان يونس أجوقة ، **كوكبة من شهداء الشراكسة والشيشان والداغستان** ، من أرض القفقاس إلى أرض فلسطين

والجولان . ب ن ، ب ت .
- ابن عذاري المراكشي ، أبو عبدالله أحمد بن محمد ، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، تحقيق ومراجعة س . كولان وليفي بروفنسال ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم ، **كتاب المحن** ، تحقيق يحيى الجبوري ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- علي أحمد باكثير ، **معركة الجسر** ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- علي سامي النشّار ، **شهداء الإسلام في عهد النبوة** ، مكتبة أسامة بن زيد ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- علي حسين خلف ، **تجربة الشيخ عز الدين القسام** ، دار ابن رشد ، عمّان .
- علي شحاته وأحمد رجب عبدالمجيد ، **مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام** ، دار الفكر .
- علي شريعتي ، **الشهادة** ، دار التوجيه الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- علي شريعتي ، **عن التشيّع والثورة** ، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا ، الأمين للنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ .
- العماد الأصفهاني ، أبوعبدالله محمد بن محمد ، **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- **عمر المختار ؛ نشأته وجهاده من ١٨٦٣-١٩٣١** ، إشراف عقيل

محمد البربار ، الجماهيرية العربية الليبية ، ١٩٨١ .
- عيسى خليل محسن ، **فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني** ، ط١ ، دار الخليل ، عمّان ، ١٩٨٦ .
- غسان دوعر ، **أسود حماس (١) حرب الأيام السبعة** ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٣ .
- ــــــ ، **المهندس ؛ الشهيد يحيى عيّاش رمز الجهاد وقائد المقاومة في فلسطين** ، ط٢ ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٧ .
- ــــــ ، **موعد مع الشاباك ؛ دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام ١٩٩٣** ، ط١ ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ١٩٩٥ .
- فايد حمّاد محمد عاشور ، **الجهاد الإسلامي ضد الحروب الصليبية ؛ العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي** ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .
- فايزة سعيد ، **سنوات الدم : تجربة الثورة الجزائرية** ، مكتبة روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- فتحي أسعد نعجة ، **شخصيات إسلامية ؛ علماء وقادة** ، دار البيارق ، عمان ، ١٩٩٩ .
- أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل ، **المختصر في أخبار البشر** ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
- أبو الفرج الأصفهاني ، **مقاتل الطالبيين** ، ط٢ ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف ، ١٩٦٥ .

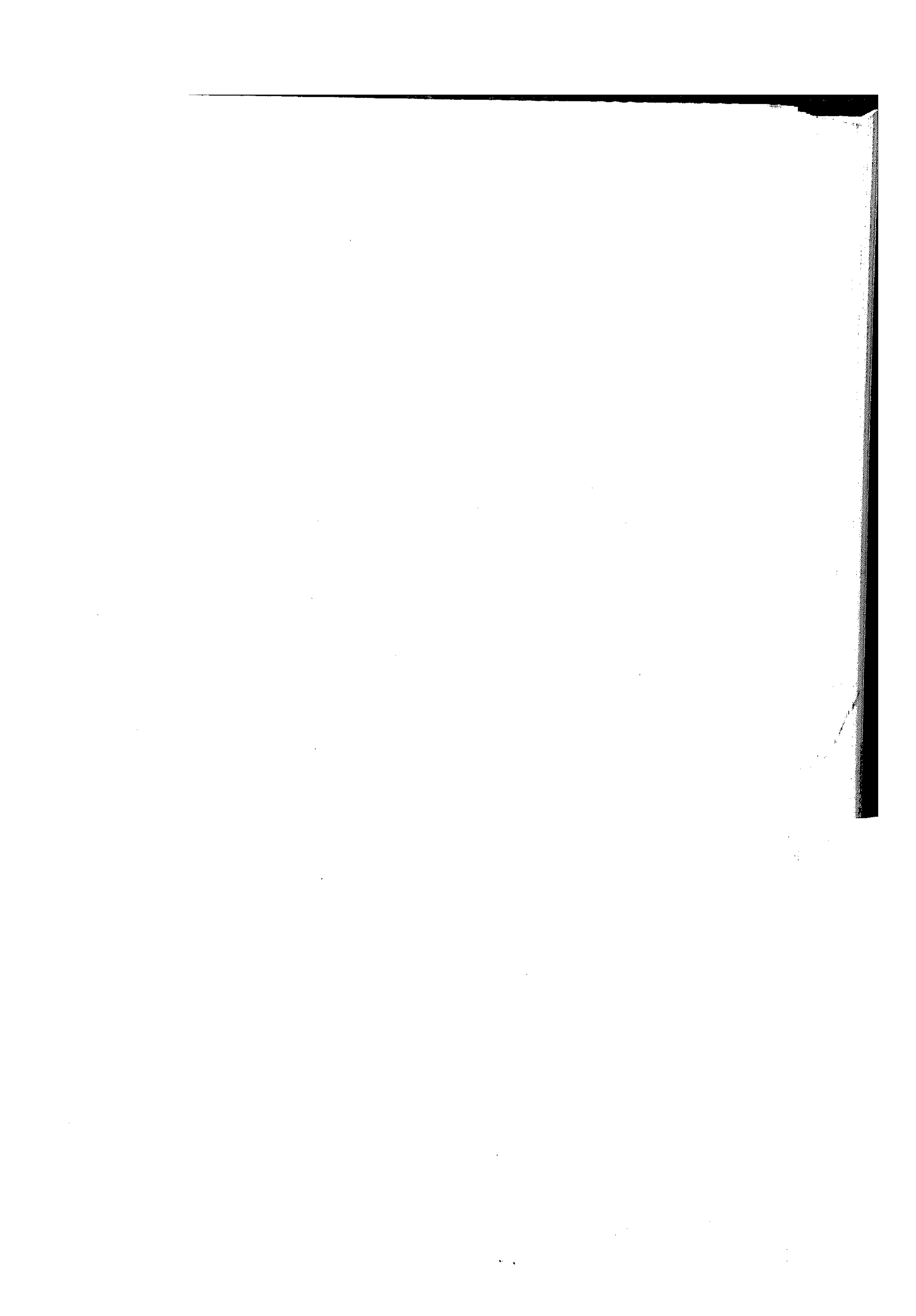
- لوثروب ستودارد ، **حاضر العالم الإسلامي** ، ترجمة عجاج نويهض ، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .
- ابن المبارك ، عبدالله بن المبارك ، **كتاب الجهاد** ، تحقيق نزيه حمّاد ، دار المطبوعات الحديثة ، جدّة .
- المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين ، **شرح ديوان المتنبي** ، وضعه عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- محمد إبراهيم نصر ومحمد مصطفى سلام ، **عكرمة بن أبي جهل ، قائد الفرقة الانتحارية في اليرموك** ، ط٢ ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٨٢ .
- محمد أبو فارس ، **شهداء فلسطين** ، ط١ ، دار الفرقان ، عمّان ، ١٩٩٠ .
- المقّري أحمد بن محمد ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- محمد حاتم الطبشي ، **بطولات ومواقف في الصبر والتحمل والتضحية** ، ط١ ، دار العلم (دمشق) ، والدار الشامية -بيروت ، ١٩٩٥ .
- محمد حسن بريغش ، **مصعب بن عمير الداعية المجاهد** ، دار القلم ، دمشق-بيروت ، ١٩٧٥ .
- محمد سعيد غيبة ، **العمليات الاستشهادية وآراء الفقهاء فيها** ، دار المكتبة ، دمشق ، ١٩٩٧ .

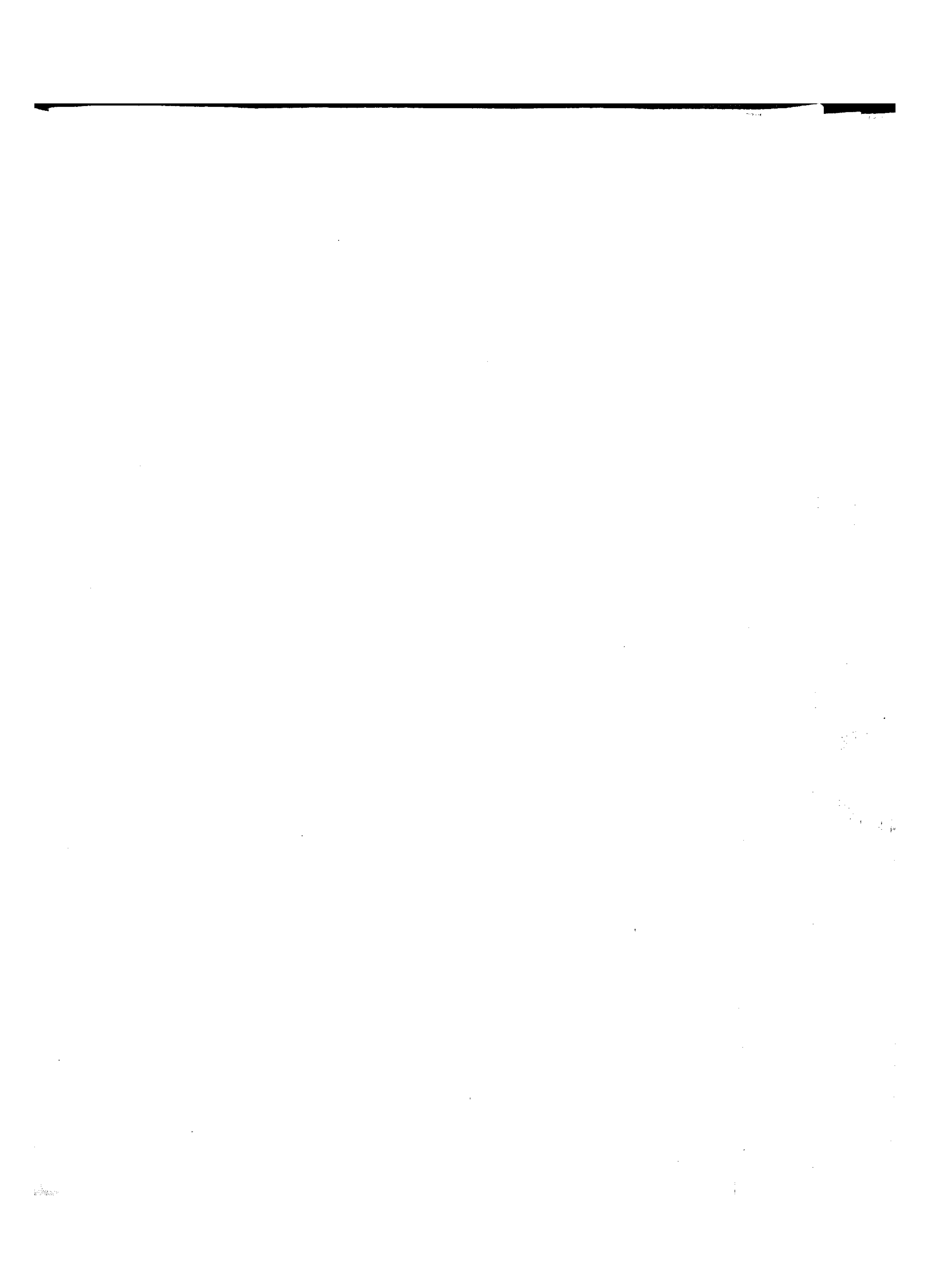
- محمد الصايم ، **شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين** ، دار الفضيلة ، القاهرة .
- محمد طعمة القضاة ، **المغامرة بالنفس في القتال وحكمها في الإسلام** ؛ العمليات الاستشهادية ، عمّان ، ٢٠٠١ .
- محمد عبدالرحيم ، **أربعون حديثاً في الشهادة** ، دار الحكمة ، دمشق ، ١٩٩٥ .
- محمد عبدالقادر بامطرف ، **الشهداء السبعة** ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٤ .
- محمد عبدالله عنان ، **أندلسيات** ، كتاب العربي ٢٠ ، الكويت ، ١٩٨٨ .
- ـــــــــ ، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس)** ، ط٢ ، مطبعة مصر ، القاهرة .
- محمد علي قطب ، **الشهيد وأوسمته العشرة** ، ط١ ، دار الفرقان ، عمّان ، ١٩٩٣ .
- محمد عمارة ، **مسلمون ثوّار** ، ط٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- محمد فريد عبدالقادر ، **معارك فاصلة في الإسلام** ، دار المستقبل العربي ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- محمد فهمي عبدالوهاب ، **شهداء الصحابة في صدر الإسلام** ، دار الاعتصام ، القاهرة .
- محمد ماهر حمادة ، **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي**

للعالم الإسلامي ؛ دراسة ونصوص ، منشورات مؤسسة الرسالة .
- محمد مصطفى زيادة ، **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة** ، ط١ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون الآداب والعلوم الأجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- محمد مهدي شمس الدين ، **أنصار الحسين ؛ دراسة عن شهداء ثورة الحسين : الرجال والدلالات** ، ط٣ ، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- محمد موسى أبو شرار ، **من مواقف القدوة في المحن** ، ط١ ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمّان ، ١٩٩٣ .
- محمد ياسين عرفة ، **ديوان الثورة** ، جمع محمد ياسين عرفة ، المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٦ .
- محمود السمرة ، «علماء في وجه الطغيان» ، **مجلة العربي** ، العدد ٨٩ ، نيسان ، ١٩٦٦ .
- محمود الشرقاوي ، **بطولات عربية** ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة .
- محمود شيت خطاب ، الفقيه القائد أسد بن الفرات ، **مجلة العربي** ، العدد ١٠٤ ، تموز ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٤-١٠٩ .
- ________ ، **قادة فتح بلاد فارس (إيران)** ، ط١ ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ________ ، **قادة فتح الشام ومصر** ، ط١ ، دار الفتح ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- ــــــــــــ ، **قادة فتح العراق والجزيرة** ، دار القلم ، القاهرة .
- محمود عبيدات ، **أحمد مريود ١٨٨٦-١٩٢٦ ، قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن** ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ط١ ، ١٩٩٧ .
- محمود نصير بك ، **أبطال الفتح الإسلامي من العرب والترك** ، ط٢ ، مكتبة خلف بمصر .
- مخلص يحيى برزق ، **فضائل الشهيد يحيى عياش** ، منشورات فلسطين المسلمة ، لندن ، ٢٠٠١ .
- معن أبو نوار ، **معركة الكرامة** ، ط٣ ، مطبعة القوات المسلحة ، عمان ، ١٩٦٨ .
- أبو المعالي أطهر المباركبوري ، **العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين** ، دار الأنصار ، القاهرة .
- **مغازي رسول الله لعروة بن الزبير** ، الرياض ، ١٩٨١ .
- نبيل خالد الآغا ، **قضية فلسطين في سيرة بطل ؛ الشهيد الحي عبدالقادر الحسيني** ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات .
- ابن النحاس ، أحمد بن إبراهيم ، **كتاب مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد** ، تهذيب وتقديم صلاح الخالدي ، ط١ ، دار النفائس ، عمّان ، ١٩٩٩ .
- النعمان عبدالمتعال القاضي ، **شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .
- نوري حمودي القيسي ، **البطل في التراث** ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ .

- هادي العلوي ، **فصول من تاريخ الإسلام السياسي** ، ط۱ ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، قبرص ، ١٩٩٥ .
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام ، **السيرة النبوية** ، ط۱ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ .
- **هؤلاء الأبطال** ، إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة ، القاهرة (شهداء الجيش المصري في حرب ١٩٤٨) .
- **الواقدي** ، أبو عبدالله محمد بن عمر ، **فتوح أفريقيا** ، تونس ، ١٩٦٦ .
- ________ ، **فتوح الشام** ، ط۱ ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ________ ، **كتاب الردّة** ، تحقيق محمود عبدالله ابو الخير ، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع ، عمّان .
- ________ ، **كتاب المغازي** ، ج۲ ، تحقيق مارسدن جونز ، انتشارات اسماعيليان ، طهران .







إنّ روح الشهادة هي الطريق إلى ثقافة المقاومة ، لذلك نقرأ دفاتر الشهداء كي نضيء الحاضر ونستشرف المستقبل، ولا نستعيد رؤاهم ومصارعهم على صورة الرحيل في الماضي ، بل ندعو ، ونحن نسعى نحو أضرحتهم إلى نهضة الأمّة على قواعد العلم والتسامح والشورى والجهاد ، فما يزال في هذا العالم فقر وقهر واستعمار واستلاب ، وأمّتنا في موضع المحنة والاتّهام والتشظّي ، لذلك تعزّز صورة المرحلة ضرورة القراءة الجديدة لصور الجهاد العظيم من أوّل صبر آل ياسر إلى صبر أهل فلسطين .

إنّهم الفتية الملتزمون بالرسالة والتاريخ وتحرير الأرض ، والّذين أدركوا بوعي مبكّر متميّز طبيعة الغزو الصهيونيّ الاستيطانيّ الّذي يشكّل قاعدة للخراب القادم من الغرب المتفرّد بسلطة القوّة والمال والإعلام .. الغرب الّذي ظلّ يتذكّر خطى جيش عبد الرحمن الغافقي على مسافة مئة ميل من باريس ، ووقوف أبي أيّوب الأنصاريّ على بوّابة القسطنطينيّة ، والعبور الإسلاميّ الهائل إلى النصر منذ أن قطع خالد بن الوليد الصحراء نحو اليرموك ، حتّى عبر شباب مصر قناة السويس وهم يؤذّنون باسم الله العليّ ال

